

فتوح بلاد الأندلس

إعداد

الدكتور عبد العزيز بن عبد الله الحميدي

الأستاذ بجامعة أم القرى

والمدرس بالمسجد الحرام

ح
عبد العزيز عبد الله الحميدي ، ١٤٣٧ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الحميدي ، عبد العزيز عبد الله
فتوح بلاد الأندلس . / عبد العزيز عبد الله الحميدي - مكة المكرمة ،
١٤٣٧ هـ

٩١ ص ؛ .. سم

ردمك : ٧-١١٤٨ - ٠٢ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١- الاندلس - تاريخ ٢ - فتح الأندلس ٣ - الفتوحات الاسلامية
أ.العنوان
ديوي ٩٥٣,٠٧١
١٤٣٧/٥١٩٢

رقم الإيداع : ١٤٣٧/٥١٩٢

ردمك : ٧-١١٤٨ - ٠٢ - ٦٠٣ - ٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣٧ هـ / ٢٠١٦ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد : فهذا الكتاب موضوعه «فتوح بلاد الأندلس» .

وليس المقصود بهذا التاريخ رصد كل مادونه المؤرخون من تاريخ جهاد المسلمين وفتوحاتهم ، وإنما المقصود منه ما اشتمل عليه ذلك من المواقف التي من أبرزها نشر الإسلام .

وقد بيّنتُ في هذا الكتاب وفيما سبقه من الكتب أن المقصود من

الجهاد هو نشر الإسلام في تلك البلاد عن طريق الجهاد الدعوي .

والجهاد نوعان : جهاد دفاعي وهو الذي يكون عند هجوم

الأعداء على بلاد الإسلام، وهو فرض عين على كل قادر، وجهاد

دعوي ، وهو الجهاد في بلاد الكفار من أجل تحرير الشعوب من

الحكومات الكافرة حتى يفهموا الإسلام ويدخلوا فيه، وهو فرض

كفاية ، وقد تبين لنا في كتاب « الخلفاء الراشدون » أن قادة المسلمين

كانوا يدعون الكفار إلى الدخول في الإسلام قبل كل معركة ، ومن

ذلك ما قاله سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لقائد الفرس رستم: إني

أدعوك إلى ماهو خير لنا ولك، العافية أن تقبل مادعاك الله إليه،
ونرجع إلى أرضنا وترجع إلى أرضك، ومقاله رستم لزهرة بن الحوية
لما دعاه إلى الإسلام: رأيت إن رضيت بهذا الأمر ومعى قومي كيف
يكون أمركم أترجعون؟ قال: إي والله ثم لانقرب بلادكم أبداً إلا في
تجارة أو حاجة، وسيتبين لنا مثل ذلك في هذا الكتاب .

الجهاد والفتوحات في عهد الأمويين

جهاد طريف بن مالك

كان مما هياه الله تعالى للمسلمين أنه كان بين جوليان حاكم مدينة «سبته» وبين لذريق حاكم الأندلس عداوة ومنافسة، فأرسل جوليان إلى موسى بن نصير رسالة يعرض فيها تسليم مدينة سبته ويدعوه لفتح الأندلس، وقد صادف ذلك رغبة في نفس موسى وطموحًا منه لنشر الإسلام في تلك البلاد.

كتب موسى إلى الوليد بن عبد الملك يخبره بما جرى بينه وبين حاكم سبته ويستأذنه في غزو الأندلس، فكتب إليه الوليد: بأن يختبرها بالسرايا وأن لا يغرر بالمسلمين، فبعث موسى عند ذلك رجلا من البربر وهو طريف بن مالك ويكنى بأبي زرعة في مائة فارس وأربعمائة راجل، فجاز البحر في أربعة مراكب حتى نزل ساحل البحر في الأندلس فيما يحاذي «طنجة» وهو الذي عرف بعد ذلك بجزيرة طريف فأغار منها على ما يليها حتى بلغ مدينة «الجزيرة الخضراء» ورجع سالما، وذلك سنة إحدى وتسعين للهجرة.

وقد كانت هذه الرحلة استطلاعية لمعرفة قوة العدو وطبيعة البلاد.

فتوحات طارق بن زياد

في رجب سنة اثنتين وتسعين للهجرة جهز موسى بن نصير جيشاً من العرب والبربر يبلغ سبعة آلاف بقيادة طارق بن زياد، وقد استفاد المسلمون من المعلومات التي أتى بها طريف بن مالك حيث سار طارق بجيشه من سبتة حتى نزل بالجبل المقابل لها والذي سمي فيما بعد «جبل طارق» ، بينما سار طريف قبل ذلك من طنجة ونزل فيما يقابلها حيث سمي جزيرة طريف ، ثم اتجه طارق شرقاً نحو جبل طارق، ولعله رأى أنه أفضل مكان لنزول الجيش الإسلامي لمناعته وقربه من سبتة مركز الانطلاق .

وقد سار طارق بالدفعة الأولى من جيشه على السفن الأربع، ووجد عند الساحل بعض الروم وقوفاً فمنعوا المسلمين من النزول، فلم يقاومهم لأنه قصد الدخول بسرّية حتى يتم اجتماع جنده ويتأهب للقاء عدوه فعدل إلى مكان آخر فيه وعورة فقام هو وجنده بتسهيله حتى نزلوا ولم يعلم بهم أهل البلاد ، ثم استقر في الجبل الذي رآه مكاناً ملائماً للحرب ورجعت السفن تنقل بقية الجيش حتى توافى جميع أصحابه عند الجبل وذلك في شعبان من سنة اثنتين وتسعين .

وقبل أن أذكر ما قام به طارق بعد ذلك فإنني أحب أن أشيد بهذه الخطة الحربية الممتازة التي سار عليها طارق بتوجيه موسى بن نصير حيث استطاع اختيار المكان الملائم للتحصن من الأعداء حتى يتم اجتماع الجيش كله، إذ أن هناك احتمالاً كبيراً أن يهاجم الأعداء جيش المسلمين قبل تكاملهم، فوجودهم في ذلك الجبل يعطيهم مقدرة على الدفاع عن أنفسهم ، ثم إن مما يُشاد به مقدرة طارق وجيشه على التكتّم عن الأعداء حيث دخلوا ولا يعلم الأعداء أنهم محاربون، ثم ما زالوا يتجمعون في ذلك الجبل حتى كمل عددهم من غير أن يشعر به عدوهم مع أن تلك المنطقة كان بها أمير من قبل لذريق ومعه جيش معدٌّ لحماية تلك المنطقة.

وجاء في كتاب «تاريخ افتتاح الأندلس» لابن القوطية القرطبي: أن طارق بن زياد لما دخل السفن مع أصحابه غلبته عينه، فكان يرى في نومه النبي ﷺ وأصحابه حتى دخلوا الأندلس، فاستبشر وبشر أصحابه^(١).

(١) تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية القرطبي ص ٧٧ .

ولاشك في أن هذه الرؤيا الصالحة كان لها الأثر الكبير في إقدام طارق وأفراد جيشه على الدخول في مغامرة كبيرة في قتال جيش كبير يفوق جيش المسلمين كثيراً في العدد والعدد الحربية.

ثم سار طارق منحدرًا نحو الجزيرة الخضراء ، وقد جرت بينه وبين القوط^(١) مناوشات حربية انتصر فيها المسلمون، وكان قائد الروم «تُدْمير» الذي كان واليا على تلك المنطقة ، وقد كتب إلى «لُدْرِيْق» يعلمه بأن قوما لا يدري من أهل الأرض أم من أهل السماء قد وطئوا إلى بلادنا وقد لقيتهم فلتنهض إليّ بنفسك .

وهكذا وصف المسلمين بوصف يدل على فزعه منهم، وأن قدومهم كان مفاجأة كبرى له ، وكونه يتشكك في حقيقة أمرهم هل هم من أهل الأرض أم من أهل السماء ، يدلنا على ما كان يتمتع به أولئك الغزاة المسلمون من حيوية وثابة واندفاع عارم أذهل القوط وجعلهم في حيرة من أمرهم . إن أولئك الكفار لم يألّفوا ذلك الهجوم

(١) القوط اسم لسكان الأندلس آنذاك .

الصاعق والارتقاء المتفاني في أحضان الموت فشكُّوا في كون أولئك المهاجمين من جنس البشر العاديين .

المعركة الفاصلة مع حاكم الأندلس :

لما علم حاكم الأندلس لُذريق بزحف المسلمين بدأ يجهز جيشاً كبيراً ليزحف به نحو الجنوب ، وعلم طارق بأخبار هذا التجمع الكثيف، - وهذا يدل على دقة رصد المسلمين لتحركات أعدائهم - فكتب إلى موسى بن نصير يخبره بذلك ويستمدده ، فأرسل إليه قرابة خمسة آلاف مجاهد بقيادة طريف بن مالك ، حملتهم سفن المسلمين، وكان موسى بن نصير مذوَّجاً طارقاً أخذ في عمل السفن حتى صارت معه سفن كثيرة ، فحمل إليه خمسة آلاف ، فتوافى المسلمون عند طارق اثني عشر ألفاً .

وقد جمع لُذريق جيشاً كبيراً هو ما بين مائة ألف وأربعين ألفاً حسب اختلاف الروايات ، وقد كانوا مغرورين بكثرتهم وقوة استعدادهم حتى إنهم حملوا معهم الحبال على دواب خاصة لكتاف أسرى المسلمين .

واستعد الفريقان للقتال ، وكان أكثر جيش طارق رَجَالَةً حيث لم يكن معهم من الخيول إلا القليل بينما كان جيش القوط يملكون الكثير منها^(١) .

هذا وقد قال المؤرخ أحمد بن محمد المقرئ في بيان أحداث هذه المعركة وما بعدها :

وقال الرازي : كانت الملاقاة يوم الأحد لليلتين بقيتا من شهر رمضان ، فاتصلت الحربُ بينهم إلى يوم الأحد لخمس خَلَوْنَ من شوال بعد تنمة ثمانية أيام ، ثم هزم الله المشركين ، فقتل منهم خلق عظيم ، أقامت عظامهم بعد ذلك بدهر طويل ملبسة بتلك الأرض ، قالوا : وحاز المسلمون من عسكرهم ما يجلُّ قدره ، فكانوا يعرفون كبار العجم وملوكهم بخواتم الذهب يجدونها في أصابعهم ويعرفون من دونهم بخواتم الفضة ، ويميزون عبيدهم بخواتم النحاس ، فجمع طارق الفياءَ وخمسه ، ثم اقتسمه أهله على تسعة آلاف من

(١) انظر نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرئ ١/ ٢٢٤ - ٢٤٢ . وانظر التاريخ

الأندلسي للدكتور عبد الرحمن الحجّي / ٤٧-٦٧ .

المسلمين سوى العبيد والأتباع، وتسامع الناس من أهل برّ العُدوة^(١) بالفتح على طارق بالأندلس وسعة المغانم فيها ، فأقبلوا نحوه من كل وَجْه، وخرقوا البحر على كل ماقدروا عليه من مركب وقُشْر^(٢)، فلحقوا بطارق ، وارتفع أهل الأندلس عند ذلك إلى الحصون والقلاع، وتهاربوا من السهل ، ولحقوا بالجبال^(٣) .

وهكذا عرّضت كتب التاريخ هذه المعركة عرضاً موجزاً جداً بينما كانت معركة كبيرة وحاسمة حيث فتحت الباب للمسلمين ليتوغلوا بعد ذلك في فتح الأندلس دون مقاومة كبيرة إلا في معارك محدودة.

ولاشك أن توضيحات كبيرة قد قدمها المسلمون خلال تلك الأيام الثمانية التي ظنوا فيها فناءهم كما جاء في بعض الروايات ، كما أنهم قد توجهوا في تلك المعركة بإخلاص وروح معنوية عالية غطت

(١) يعني في المغرب الأقصى .

(٢) القشر الزورق الصغير .

(٣) نفع الطيب ١/ ٢٤٣ ، وانظر البيان المغرب لابن عذاري المراكشي ٨/ ٢ .

على جميع جوانب النقص الكثيرة بالمقارنة بأعدائهم ، وإن أبلغ وصف لشجاعة هؤلاء المجاهدين المذهلة ، وإقدامهم الذي لا تحُدُّ منه العقبات ولا تقف دونه السدود قول حاكم تلك الولاية في وصفهم «لا يُدْرَى مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ أَمْ مِنْ أَهْلِ السَّمَاءِ» وإذا كان لا يدري فإننا نقول : بل هم قدر الله تعالى النافذ وقضاؤه الذي لا يرد .

ومما يؤسف له أن كتب التاريخ لم تسجل أحداث هذه المعركة الكبيرة إلا في بضعة أسطر، ولقد كنت أودُّ أن نعرف الأحداث اليومية لتلك المعركة وما جرى فيها من تضحيات ومواقف عالية من الصمود .

لقد كان المسلمون مقدِّمين على خوض تلك المعركة الهائلة وهم فعلا يتصورون إحدي الحسينيين .. فإما شهادة ينالون بها المقامات العليا في الآخرة وإما نصر ينالون به المقام الرفيع في الدنيا إلى جانب ما أعده الله تعالى لهم في الآخرة ، فلذلك كان قتالهم قتال المستميت وأصبحت طاقتهم أعلى بكثير من طاقة أعدائهم، وصبرهم على الشدائد أشد بكثير من صبر أعدائهم ، فكانت لهم نهاية المعركة .

هذا ولم يكن موسى بن نصير وهو المسؤول الأول عن ذلك

الفتح بمعزل عن أحداث هذه المعركة ومابعدھا ، بل كان شديد الاهتمام بأمر أولئك المجاهدين ، فكان إلى جانب ما قام به من إمدادهم بالجنود معهم بدعائه وتضرعه إلى الله تعالى ، كما قال ابن الكردبوس : «وكان موسى بن نصير حين أنفذ طارقاً مُكبّاً على الدعاء والبكاء والتضرع إلى الله تعالى والابتهال إليه في أن ينصر جيش المسلمين، وما عُلِمَ أنه هُزِمَ له جيش قط»^(١) .

وهذا يدلنا على صفة من صفات موسى بن نصير المهمة التي كانت وراء انتصاراته العظيمة، وهي قوة صلته بالله تعالى وشعوره الصادق بأن النصر بيد الله سبحانه وإن اختلفت موازين التكافؤ في المعركة .

فتح عدد من مدن الأندلس :

قال المقرئ : ثم أقبل طارق حتى نزل بأهل مدينة شذونة ، فامتنعوا عليه ، فشدَّ الحصر عليهم حتى نهكهم وأضرَّهم ، فتهيأ له فتحها عنوة ، فحاز منها غنائم ، ثم مضى منها إلى مُدَوَّر ، ثم عطف

(١) التاريخ الأندلسي / ٦٧ ، عن تاريخ الأندلس لابن الكردبوس / ٤٦ - ٤٧ .

على قَرْمُونَة . فمر بعينه المنسوبة إليه ، ثم مال على إشبيلية فصالحه أهلها على الجزية ، ثم نازل أهل أستجة وهم في قوة ومعهم فل عسكر لذريق ، فقاتلوا قتالا شديداً حتى كثر القتل والجراح بالمسلمين، ثم إن الله تعالى أظهر المسلمين عليهم ، فانكسروا ، ولم يلق المسلمون فيما بعد ذلك حرباً مثلها، وأقاموا على الامتناع إلى أن ظفر طارق بالعلج صاحبها ، وكان مغترًا سيء التدبير، فخرج إلى النهر لبعض حاجاته وحده ، فصادف طارقاً هناك قد أتى لمثل ذلك، وطارق لا يعرفه ، فوثب عليه طارق في الماء ، فأخذه وجاء به إلى العسكر ، فلما كاشفَه اعترف له بأنه أمير المدينة، فصالحه طارق على ما أَحَبَّ ، وضرب عليه الجزية ، وخلق سبيله ، فوفى بها عاهد عليه.

إلى أن قال : ففرَّق طارق جيوشه من أستجة ، فبعث مغيثاً الرومي مولى الوليد بن عبد الملك إلى قرطبة ، وكانت من أعظم مدائنهم، في سبعمائة فارس ، لأن المسلمين ركبوا جميعاً خيل العجم، ولم يبق فيهم راجلٌ ، وفضلت عنهم الخيلُ ، وبعث جيشاً آخر إلى مالقة ، وآخر إلى غرناطة مدينة إلبيرة، وسار هو في معظم الناس إلى

كورة جيان يريد طليطلة ، وقد قيل : إن الذي سار لقرطبة طارق
بنفسه ، لامغيث ، قالوا : فكمناو بُعدوة نهر شقندة في غيضة أرزشاخة ،
وأرسلت الأدلاء فأمسكوا راعي غنم فسئل عن قرطبة فقال : رحل
عنها عطاء أهلها إلى طليطلة ، وبقي فيها أميرها في أربعمئة فارس من
حماتهم مع ضعفاء أهلها ، وسئل عن سورها فأخبر أنه حصين عال
فوق أرضها إلا أنه فيه ثغرة ^(١) ووصفها لهم ، فلما أجنهم الليل أقبلوا
نحو المدينة ووطأ الله لهم أسباب الفتح بأن أرسل السماء برذاذ أخفى
دقدقة حوافر الخيل ، وأقبل المسلمون رويداً حتى عبروا نهر قرطبة
ليلاً ، وقد أغفل حرس المدينة احتراس السور ، فلم يظهروا عليه
ضيقةً بالذي نالهم من المطر والبرد ، فترجل القوم حتى عبروا النهر
وليس بين النهر والسور إلا مقدار ثلاثين ذراعاً أو أقل ، وراموا
التعلق بالسور فلم يجدوا متعلقاً ، ورجعوا إلى الراعي في دلالتهم على
الثغرة التي ذكرها ، فأراهم إياها ، فإذا بها غير متسهلة التسنُّم ، إلا

(١) ثغرة : مكان يمكن الدخول منه .

أنه كانت في أسفلها شجرة تين مكنت أفنانها^(١) من التعلق بها ، فصعد رجل من أشداء المسلمين في أعلاها، ونزع مغيث عمامته فناوله طرفها، وأعان بعض الناس بعضا حتى كثروا على السور، وركب مغيث ووقف من خارج ، وأمر أصحابه المرتقين للسور بالهجوم على الحرس ، ففعلوا، وقتلوا نفراً منهم، وكسروا أقفال الباب ، وفتحوه ، فدخل مغيث ومن معه وملكوا المدينة عنوة، فصعد إلى البلاط منزل الملك ومعه أدلاؤه ، وقد بلغ الملك دخولهم المدينة ، فبادر بالفرار عن البلاد في أصحابه ، وهم زهاء أربعمئة ، وخرج إلى كنيسة بغربي المدينة، وتحصن بها ، وكان الماء يأتيها تحت الأرض من عين في سفح جبل ، ودافعوا عن أنفسهم ، وملك مغيث المدينة وماحولها.

قال : وأما من وُجِّه إلى مالقة فإنهم فتحوها ، ولجأ علوجها إلى جبال هنالك ممتنعة ، ثم لحق ذلك الجيش بالجيش المتوجه إلى البيرة، فحاصروا مدينتها غرناطة ، فافتتحوها عنوة .

قال : ومضى الجيش إلى تدمير ، وتدمير : اسم العليج صاحبها،

(١) أفنائها : أغصانها .

سميت به واسم قصبتهأ أريولة ، ولها شأن في المنعة، وكان ملكها
علجا داهية،وقاتلهم مضحيا،ثم استمرت عليه الهزيمة في فُحصها^(١) ،
فبلغ السيف في أهلها مبلغًا عظيمًا أفنى أكثرهم ولجأ العليج إلى أريولة
في يسير من أصحابه لا يغنون شيئًا ، فأمر النساء بنشر الشعور وحمل
القصب والظهور على السور في زي القتال متشبهات بالرجال ،
وتصدر قدامهن في بقية أصحابه يُغالط المسلمين في قوته على الدفاع
عن نفسه ، فكره المسلمون مراسه^(٢) لكثرة من عاينوه على السور،
وعرضوا على السور ، وعرضوا عليه الصلح ، فأظهر الميل إليه ، ونكَّر
زيه ، فنزل إليهم بأمان على أنه رسول ، فصالحهم على أهل بلده ، ثم
على نفسه ، وتوثق منهم ، فلما تم له من ذلك ما أراد عرفهم بنفسه ،
واعتذر إليهم بالإبقاء على قومه ، وأخذهم بالوفاء بعهده ، وأدخلهم
المدينة ، فلم يجدوا فيها إلا العيال والذرية ، فندموا على الذي أعطوه

(١) أي ما استوى من الأرض حولها .

(٢) مراسه - بكسر الميم - معالجة شأنه بالقتال ومعاناة ذلك .

من الأمان ، واسترجحوه ^(١) فيما احتال به، ومضوا على الوفاء له ، وكان الوفاء عادتهم ، فسلمت كورة تُدمر من مَعَرَّة المسلمين ^(٢) بتدبير تُدمر ، وصارت كلها صلحا ليس فيها عَنوة ، وكتبوا إلى أميرهم طارق بالفتح ، وخلفوا بقصبة البلد رجالا منهم، ومضى معظمهم إلى أميرهم لفتح طُلَيْطلة ^(٣) .

وهكذا سار طارق وقواده يفتحون تلك البلاد بسرعة مذهلة وبدون مقاومة كبيرة .

لقد كان أهل الأندلس كسائر البلدان المتحضرة يعيشون آنذاك تحت حكم طغاة متجبرين ، وكان أولئك الطغاة يتصارعون على الحكم من أجل امتصاص خيرات البلاد والتجبر على الناس وتحويل المستضعفين إلى مستعبدين أذلاء، فكان أهل البلاد يتمنون الخلاص من أولئك المتجبرين، ولعلهم سمعوا بما ناله أهل المغرب على يد

(١) استرجحوه : عدَّوه راجح العقل حسن التدبير .

(٢) أي إيذاؤهم لهم .

(٣) نفح الطيب ١/٢٤٣-٢٤٥ ، وانظر البيان المغرب ٢/٩-١٠ .

المسلمين الفاتحين من أمن ورخاء وعدالة ، فأصبحوا يتمنون الخلاص من طغاتهم على أيدي المسلمين ، ولذلك وجدناهم يفتحون لهم صدورهم قبل أن يفتحوا لهم بلادهم ويسارعون في تقديم الولاء لهم، ويخذلون حكامهم الذين عانوا منهم الأمرين، ولقد انتشر الإسلام سريعا على إثر انتشار المسلمين في الأندلس فكانت أخلاق المسلمين وعدالتهم وتفانيهم في خدمة دينهم وترفعهم عن الدنيا مفتاح قلوب أهل تلك البلاد .

وفي خبر تدمير ومعاملة المسلمين لصاحبها منقبة عالية للمسلمين حيث وفي المسلمون بعهدهم لذلك الحاكم الأندلسي مع سبق خديعته إياهم ، وذلك لشدة اهتمامهم بالوفاء بالعهد الذي ظلوا طيلة فتوحاتهم في الشرق والغرب مشهورين به ، ومن المؤكد أن سمعتهم العالية في ذلك قد انتقلت من المغرب إلى الأندلس وإلا فإنه من المستبعد أن يغامر ذلك الحاكم بنفسه حيث خرج للتفاوض مع المسلمين ثم عرفهم بنفسه بعد تمام الصلح .

إنه في حساب الربح والخسارة من الناحية الحربية قد يقال إن

المسلمين قد خسروا بهذا الصلح سبع مدن لم يكن فيها إلا قوة ضعيفة للأعداء وأنه كان بإمكان المسلمين أن يستأصلوا أعداءهم وأن يستولوا على تلك المدن بما فيها من متاع الدنيا ، ولكن المسلمين في حساب الإسلام قد كسبوا مكسباً عظيماً حيث تقدموا شوطاً عالياً في الرقي الأخلاقي الذي يعدُّ من أهم مقومات الدعوة الإسلامية . ولاشك أن هذا السلوك الحميد وأمثاله مما يفسَّر به سرعة دخول أهل تلك البلاد في الإسلام ، وتحوُّهم إلى جنود يخدمون الإسلام و يقيمون صرح دولته في بلادهم .

فتوحات موسى بن نصير

أما بقية فتوح الأندلس فقد شارك فيها موسى بن نصير أمير المغرب، وهو الذي بعث طارق بن زياد لفتح الأندلس .

وقد كان موسى بن نصير قد أشفق على وجود المسلمين في الأندلس حيث توغل طارق في الفتح شمالا وبقي شرق البلاد وغربها لم يُفتح فخشي أن يطوقه الأعداء ، وجاء في بعض الروايات أن طارقا كتب إلى موسى يستمده لما خشي من إحاطة الأعداء به .

وقد عبّر موسى مضيق جبل طارق في جيش قوامه ثمانية عشر ألفا وذلك في رمضان من عام ثلاثة وتسعين للهجرة ، واستخلف ابنه عبد الله على أفريقية .

وبعد وصوله إلى الجزيرة الخضراء استشار مستشاريه في خطة الفتح وذلك في المسجد الذي بناه هناك وهو الذي عرف بمسجد الرايات لكثرة الرايات في ذلك الجيش ، وبعد هذه الشورى اتجه إلى الشمال الغربي من الأندلس وذلك لحماية الفتح الإسلامي مما يبئته له الأعداء وفتح بلاد لم يصل إليها الفتح الإسلامي ، ففتح مدينة

شدونه ثم اتجه إلى قرمونة وكانت من أشد مدن الأندلس تحصينا وقد حاصرها المسلمون وأبى أهلها أن يستسلموا ، وكان في معية موسى جماعة من حلفائه من أتباع يوليان حاكم سبته فأخبروه أن هذه المدينة لا تفتح إلا بحيلة ، فوجه إليها جماعة يوليان وطرقوا بابها على أنهم فلول من جيش البلاد .

وسار خلفهم موسى بخيله، ففتحوا لهم الباب وهجم عليهم المسلمون فقتلوا الحراس واستولوا على المدينة. وهكذا تم فتح تلك المدينة بجهود يسيرة بتوفيق الله تعالى ثم بسداد الرأي وحسن التدبير من قائد المسلمين .

ثم توجه موسى بجيشه إلى أشبيلية وهي من أعظم مدن الأندلس وكانت عاصمة البلاد قبل ملك القوط ، فلما ملكوا البلاد نقلوا العاصمة إلى طليطلة ، وقد حاصر المسلمون أشبيلية عدة أشهر ثم فتحها الله لهم^(١) .

(١) نفع الطيب ١/ ٢٥١ - ٢٥٣ ، وانظر البيان المغرب ٢/ ١٣ والتاريخ الأندلسي / ٦٧ -

وقد اتجه موسى بن نصير بعد ذلك إلى مدينة «ماردة» التي كانت من أشد مدن الأندلس تحصينا، حيث إن عرض سورها اثنا عشر ذراعاً وارتفاعه ثمانية عشر ذراعاً، ولحصانتها فإن فلول جيش القوط المنهزمة قد لجأت إليها، فتجمع فيها جيش قوي ، وقد حاصرها موسى عدة شهور دون جدوى، ولكن موسى لم ييأس حيث استخدم دبابة من صنع المسلمين آنذاك حمل فيها الجنود إلى السور فبدؤوا ينقبون في السور لإحداث ثغرة فيه ، فلما استطاعوا المضي فيه قليلاً ثار عليهم جنود العدو فاستشهد المسلمون تحت الدبابة فسُمِّي ذلك البرج برج الشهداء .

وعلى الرغم من عدم وصول المسلمين إلى ما يريدون من فتح السور فإن أهل البلاد وافقوا على الصلح لما رأوا من إصرار المسلمين على حصارهم^(١) .

هذا وإن في هذا الخبر دلالة على تفوق المسلمين من الناحية المادية حيث استطاعوا صناعة الدبابات حسب الإمكانيات المتاحة لهم

(١) نفح الطيب ١/ ٢٥٢، وانظر البيان المغرب ٢/ ١٤ والتاريخ الأندلسي / ٧٤ .

في ذلك الوقت ، فلم يكتفوا بقوتهم المعنوية الفائقة بل أضافوا إليها الاستعداد الحربي القوي المناسب لعصرهم .

ومن الملاحظ سهولة فتح الأندلس وأن بعض تلك الفتوحات كانت عن طريق الصلح، وذلك لأن القوط قد تشتتوا وزالت دولتهم وهم الذين كانوا يتحمسون للقتال ويدافعون عن دولتهم ، أما عامة أهل الأندلس فقد شعروا بالأمن والطمأنينة والعدالة بوجود المسلمين فكانت مقاومتهم إياهم ضعيفة ، ولكن مع هذا فلاشك أن المسلمين قد عانوا مشقة من السفر المتواصل والإقدام على مغامرات مجهولة النتائج وفي بلاد يقدّمونها لأول مرة ويجهلون دروبها ومفاجأتها .

هذا وقد عرضتُ كتب التاريخ أخبار هذه الفتوح بإيجاز شديد لايين إلا قليلاً من مواقف المسلمين التي لاشك أنها كانت عالية وقيمة بناء على مانتج عنها من سرعة استتباب الأمن وانتشار الإسلام وسرعة اندماج أهل البلاد مع الفاتحين .

إن جهودا كبيرة قد بُذلت في الدعوة إلى الإسلام كان لها الأثر في كل

هذه النتائج، وإن من أبرز هذه الجهود القدوة الحسنة والتمثيل الصادق للإسلام، وخاصة من القادة والأمرء، الذين كانوا على جانب كبير من فهم الإسلام والرغبة الصادقة في نشره والحكم به بين الناس.

هذا ومما ينبغي الإشادة به أن هذه الفتوحات الكبيرة المتواصلة جرت من موسى بن نصير وقد جاوز الخامسة والسبعين من عمره، ومع ذلك فإنه كان في هممة الشباب وحيويتهم حتى إنه قد عزم في نهاية فتح الأندلس على فتح البلاد الأوربية وغزو القسطنطينية من الغرب لولا أن الوليد بن عبد الملك أمره بالتوقف والقدوم إلى دمشق وشدّد عليه في ذلك .

ومما يدل على صلاحه أنه دعا الله تعالى أن يرزقه الشهادة أو يموت في المدينة فأجاب الله دعاءه ، حيث مات في المدينة وهو ذاهب إلى الحج برفقة أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك عام سبعة وتسعين وعمره ثمان وسبعون سنة أو يزيد ^(١) .

(١) التاريخ الأندلسي ١٢٧ عن نفع الطيب ٢٨٣/١ ، معالم الإيمان ٢٠١/١ ، رياض النفوس ٧٨/١ .

جهاد ولاية الأندلس في أواخر الدولة الأموية

ولاية عبد العزيز بن موسى بن نصير

لما عاد موسى بن نصير من الأندلس إلى دمشق بناء على استدعاء أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ولى ابنه عبد العزيز على الأندلس، وكان رجلا خيرا فاضلا، وقد وطد الأمور في الأندلس وافتتح عدد من المدن التي لم تفتتح في عهد أبيه^(١).

وقد تولى إمارة الأندلس بعد عبد العزيز بن موسى بن نصير عدد من الولاة إلى أن قامت الدولة الأموية في الأندلس على يد الأمير عبد الرحمن الداخل، وذلك في أوائل عهد الدولة العباسية، وسأكتفي بذكر فتوحات اثنين من أولئك الولاة وهما السمح الخولاني وعبد الرحمن الغافقي .

(١) تاريخ العرب في الأندلس / الفتح وعصر الولاة / ١٨٩-١٩٢ .

ولاية السمح بن مالك الخولاني

من ولاية الأندلس السمح بن مالك الخولاني، وقد تولى في عام ١٠٠هـ (٧١٩م) وقد ولاه أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، وكان سبب اختياره أنه وفد من الأندلس مع تسعة رجال تم إيفادهم مع الأموال التي أرسلت إلى الدولة كالمعتاد، وقد كلفهم أمير المؤمنين بأن يُقسِم كل واحد منهم بأن تلك الأموال قد أخذت بالحق وأن تلك الأموال قد فضلت بعد أعطيات أهل البلاد من المقاتلة والذرية، وبعد أن أخذ كل ذي حق حقه، وقد حلف ثمانية من ذلك الوفد وامتنع اثنان من الحلف، وهما إسماعيل بن عبيد الله مولى بني مخزوم والسمح بن مالك الخولاني، فأعجب عمر بن عبد العزيز من فعلهما وقرَّبهما إليه، وبعد أن اختبرهما فوجد فيها الكفاءة الدينية وحب الخير أمر بتعيين إسماعيل والياً على أفريقية والسمح والياً على الأندلس. وقد قام السمح بن مالك بإصلاح أمور الأندلس وعمرانها، ومن ذلك قيامه ببناء قنطرة على نهر الوادي الكبير في قرطبة، وقد كتب بذلك إلى عمر بن عبد العزيز وبين له أن النهر في الشتاء لا يمكن

تجاوزه فأمره عمر ببناء تلك القنطرة.

ومع قيام السمح بن مالك بالأعمال العمرانية فإنه قد قام بالجهاد في سبيل الله تعالى في شمال الأندلس ، حيث قاد جيشًا كبيرًا ووصل إلى جبال البيرييه واجتازها إلى بلاد فرنسا ، ووصل إلى القاعدة التي كانت للمسلمين في تلك البلاد وهي «أربونه» وتقدم إلى مقاطعة إكتانيا وجرى بينه وبين أميرها «أودو» معركة حامية كان النصر فيها للمسلمين ، غير أن النصارى علموا بموضع السمح فتكاثروا عليه واستشهد رحمه الله في ٩ ذي الحجة من عام ١٠٢هـ (٧٢١م) وقد أجمع الجند على إسناد القيادة لعبد الرحمن بن عبد الله الغافقي، وهذه من مزايا المسلمين في الأندلس في ذلك العهد حيث كانوا يختارون الأجدر بالقيادة لكفاءته الدينية والإدارية^(١).

(١) تاريخ العرب في الأندلس / الفتح وعصر الولاة / ٢٠٨-٢١٥ .

ولاية عبد الرحمن الغافقي

معركة بلاط الشهداء :

تولى إمرة الأندلس عبد الرحمن الغافقي في شهر صفر من عام اثني عشر ومائة ، وقد واصل حركة الجهاد الإسلامي خلف جبال البرت وتوغل في فرنسا ، وكانت له مع الإفرنج مواقع كثيرة، إلى أن غزاهم في عام خمسة عشر ومائة ، وكان الإفرنج قد استعدوا للمسلمين بجيش كبير مجموع من عدة دولٍ أوروبية بقيادة شارل مارتل، وقد التقى المسلمون بأعدائهم في شهر رمضان المبارك من ذلك العام ، واستمرت المعركة حوالي عشرة أيام ، وكانت نهايتها استشهاد قائد المسلمين عبد الرحمن الغافقي وعدد كبير من جيشه ، وقد سُميت المعركة لذلك « بلاط الشهداء ».

وكان من أهم أسباب انهزام المسلمين أنهم كانوا قد غنموا غنائم كثيرة وهم في طريقهم إلى مكان تلك المعركة ، ولقد حاول قائدهم عبد الرحمن معهم أن يتخلوا عن تلك الغنائم ، حتى لا تكون عائقاً دون تقدمهم في الجهاد، ولكنهم رفضوا ذلك ، ولقد استمر القتال

عدة أيام حتى وصلت فرقة من جيش الأعداء قرب الغنائم، فارتدت قوة كبيرة من الجيش الإسلامي لحماية الغنائم، فاستطاع الأعداء أن يصلوا إلى قلب الجيش الإسلامي فوق الخلل في صفوفهم وقتل عدد كبير منهم بما فيهم القائد عبد الرحمن الغافقي .

ومع ذلك فقد ظل الجند العرب على صمودهم ودفاعهم حتى أسدل الليل ستاره، فافترق الطرفان وانسحب كل منهما إلى معسكره استعدادًا للقتال في اليوم التالي .

وفي خلال الليل تشاور القادة العرب فيما بينهم ورأوا أن الانسحاب أفضل من تنظيم الصفوف لاستئناف القتال في اليوم التالي، فقد كان التعب قد نال منهم مناله وسقط الكثيرون منهم في ساحة القتال بينما كانت نشوة الحماس قد غمرت صفوف الفرنجة لنجاحهم في إيقاف التقدم العربي.. فقرروا نتيجةً لذلك كله الانسحاب تحت جناح الظلام دون أن يأخذوا معهم معسكراتهم كي لا يحدثوا جلبهً تسترعي انتباه العدو .

وهكذا كان ، إذ عمد العرب إلى الانسحاب تاركين معسكراتهم وأحماهم الثقيلة ، مصطحبين معهم ما خف حملته، متوجهين إلى مقاطعة سبتانيا في الجنوب .

وفي صباح اليوم التالي استعدّ الفرنجة للقتال وانتظروا خروج العرب من معسكراتهم التي كانت لاتزال قائمةً أمامهم، بيد أن انتظارهم طال دون أن يسمعوها صوتاً أو يروا حركةً ، فاقربوا من المعسكر بحذر خوفاً من أن تكون خدعةً قد أعدّها لهم الجيش الإسلامي، فلما اكتشفوا حقيقة الأمر، ارتاحوا لانسحاب المسلمين واعتبروا أن خطرهم قد زال في الوقت الحاضر على الأقل وأخذوا يحتفلون بالنصر الذي أحرزوه^(١).

ولقد كانت هذه المعركة حاسمة بين المسلمين والنصارى، حيث تعثر الجهاد الإسلامي بعدها، وكانت نتيجتها خسارة كبرى لأوروبا،

(١) نفتح الطيب ٤/١٤-١٥ - التاريخ الأندلسي / ١٩٣-٢٠٣ - تاريخ العرب في الأندلس / الفتح وعصر الولاة / ٢٣٤-٢٣٥ .

حيث حرمت من نور الإسلام وحضارة المسلمين، ولذلك عدّها الكتاب الغربيون المنصفون نكبة كبيرة أصابت أوروبا وضربة عنيفة حرمتها من الحضارة المنيرة وكرامة الإنسان .

هذا وقد نقل الشيخ محب الدين الخطيب بعض تعليقات مفكري الغرب حيث قال : يقول مسيو هنري مدير مجلة (ريفو لمنتير الفرنسية) في بيان الأثر السيء لانتصار الصليبيين على المسلمين في هذه المعركة :

« لولا انتصار جيش شارل مارتل الهمجي على تقدم العرب في فرنسا، لما وقعت فرنسا في ظلمات القرون الوسطى، ولما أُصيبَتْ بفظائعها، ولا كابدت المذابح الأهلية الناشئة عن التعصب الديني والمذهبي، ولولا ذلك الانتصار البربري على العرب لنجت أسبانيا من وصمة محاكم التفتيش. ولولا ذلك لما تأخر سير المدينة ثمانية قرون. نحن مدينون للشعوب العربية بكل محامد حضارتنا: في العلم، والفن، والصناعة، مع أننا نزعم السيطرة على تلك الشعوب العريقة

في الفضائل! وحسبها أنها كانت مثال الكمال البشري مدة ثمانية قرون، بينما كنا يومئذ مثال الهمجية. وإنه لكذب وافتراء ما ندعيه من أن الزمان قد اختلف، وأنهم صاروا يمثلون اليوم ما كنا نمثله نحن فيما مضى» .

ويقول مسيو كلود فارير في المقدمة التي كتبها للترجمة الفرنسية من رواية « العباسة أخت الرشيد» تأليف جرجي زيدان :

« أصيبت الإنسانية والعالم الغربي عام ٧٣٢م بكارثة عظيمة لم تصب بمثلها في القرون الوسطى، وبقي أثرها ظاهرًا في العالم مدة سبعة قرون أو ثمانية ، إن لم يكن أكثر من ذلك ، لأن روح التجدد كانت يومئذ قد بدت للعيان، حتى وقعت تلك الكارثة فكان من نتائجها تأخر سير الحضارة ورجوع العالم إلى الوراء. هذه الكارثة هي الانتصار المؤلم الذي أحرزه وحوش (الهاركا) من جيوش الأفرنج التي كان يقودها شارل مارتل سليل الكارلنجين محاربًا بها كتائب العرب والبربر التي لم يحسن عبد الرحمن جمعها وحشدها بالمقدار الكافي، فكان ذلك سبب خذلانها وتقهقرها .

في ذلك اليوم المظلم تقهقرت الحضارة إلى الوراء ثمانية قرون
وحسب الذين يبتغون أن يشهدوا مثلاً من مدينة العرب يومئذ أن
يتنقلوا بين حدائق الأندلس الغناء، ثم أن يأتوا الآن فيترددوا بين
خرائب ذلك العصر الماثلة للأنظار في اشبيلية وقرطبة وطليلة
وغرناطة»^(١).

وكذلك ذكر محمد عبد الله عنان كلام بعض المستشرقين حول
هذا الموضوع ، ومن ذلك قول المستشرق رينهارت دوزي :

« لم تك حال النصارى في ظل الحكم الإسلامي مما يدعو إلى
كثير من الشكوى بالنسبة لما كانت عليه من قبل . أضف إلى ذلك أن
العرب كانوا يتحلون بكثير من التسامح . فلم يرهقوا أحداً في شؤون
الدين إلى أن قال : ولم يغمط النصارى للعرب هذا الفضل ، بل حمدوا
للفاتحين تسامحهم وعدلهم ، وآثروا حكمهم على حكم الجرمان
والفرنج . وانقضى القرن الثامن كله في سكينته ، وقلما نشبت فيه ثورة .

(١) مع الرعيل الأول لمحبة الدين الخطيب / ١١ - ١٢ .

كذلك لم يبد رجال الدين في العصور الأولى كثيرًا من التذمر، وإن كانت لديهم أكثر البواعث لذلك. وهذا ما تؤيده روح الرواية اللاتينية التي كتبت سنة ٧٥٤م في قرطبة، والتي تنسب لإيزيدور الباجي، فإن كاتبها رغم كونه من رجال الدين، يبدي نحو المسلمين من العطف، ما لم يبده أي كاتب إسباني آخر قبل القرن الرابع عشر « . ويقول دوزي عن آثار الفتح الاجتماعية : « كان الفتح العربي من بعض الوجوه نعمة لإسبانيا . فقد أحدث فيها ثورة اجتماعية هامة، وقضى على كثير من الأدواء التي كانت تعانيها البلاد منذ قرون.. وحطمت سلطة الأشراف والطبقات الممتازة أو كادت تمحى، ووزعت الأراضي توزيعًا كبيرًا، فكان ذلك حسنة سابغة، وعاملا في ازدهار الزراعة إبان الحكم العربي. ثم كان الفتح عاملا في تحسين أحوال الطبقات المستعبدة، إذ كان الإسلام أكثر تعضيدًا لتحرير الرقيق من النصرانية، كما فهمها أحبار المملكة القوطية. وكذا حسنت أحوال أرقاء الضياع، إذ غدوا من الزراع تقريبًا، وتمتعوا بشيء من الاستقلال والحرية» .

ويقول الأستاذ لاين بول: « أنشأ العرب حكومة قرطبة التي كانت أعجوبة العصور الوسطى، بينما كانت أوروبا تتخبط في ظلمات الجهل، فلم يكن سوى المسلمين من أقام بها منائر العلم والمدنية». « ما كان المسلمون كالبرابرة من القوط أو الوندال، يتركون وراءهم الخراب والموت . حاشا، فإن الأندلس لم تشهد قط أعدل وأصلح من حكمهم. ومن الصعب أن نقول أنى اكتسب العرب تلك الخبرة الفائقة بالشؤون الإدارية، فقد خرجوا من الصحراء إلى الغزو ، ولم يفسح لهم تيار الفتح مجالا يدرسون فيه إدارة الأمم المفتوحة» .

ويقول المستشرق الإسباني جاينجوس: « لقد سطعت في أسبانيا (الأندلس) أول أشعة لهذه المدنية، التي نثرت ضوءها فيما بعد على جميع الأمم النصرانية. وفي مدارس قرطبة وطليلة العربية، جمعت الجذوات الأخيرة للعلوم اليونانية بعد أن أشرفت على الانطفاء، وحفظت بعناية وإلى حكمة العرب، وذكائهم، ونشاطهم، يرجع الفضل في كثير من أهم المخترعات الحديثة وأنفعها» .

وقال المؤرخ الأمريكي سكوت : « في أقل من أربعة عشر شهرًا،
قُضي على مملكة القوط قضاء تامًا، وفي عامين فقط وطدت سلطة
المسلمين فيما بين البحر الأبيض المتوسط وجبال البرنيه. ولا يقدم لنا
التاريخ مثلا آخر اجتمعت فيه السرعة والكمال والرسوخ بمثل ما
اجتمعت في هذا الفتح .. وقد كان المظنون في البداية أن الغزو إنما هو
أمر مؤقت فقط . ولم يتوقع أحد أن يكون احتلال البلاد دائمًا . فلما
استقرت الجماعات المستعمرة. وفتحت الثغور لتجارة المشرق،
وأقيمت المساجد ، أدرك القوط فداحة الخطب الذي نزل بهم. ولكن
اعتدال حكاهم الجدد خفف من ألم الهزيمة. وكان دفع الجزية يضمن
الحماية لأقل الناس، وكان يسمح للورع المتعصب أن يزاول شعائره
دون تدخل، كما يسمح للملحد أن يجاهر بآرائه دون خشية المطاردة،
والأخبار يزاولون شؤونهم في سلام. أما أقوال الكتاب النصارى التي
ينسبون فيها للعرب أفظع المثالب، فهي محض مبالغة أو افتراء».

أجل ، لم يك ثمة ما يدعو لأن يعتبر الفتح الإسلامي لأسبانيا

كارثة قومية يفرع لها الشعب ويأسو ، بل كان كل ما هنالك بالعكس يدعو إلى اعتباره نذير الخلاص والأمل. ألم يكن شعار الفاتحين التسامح والعدل والمساواة؟ لقد كان تسامح الإسلام نبراسًا يشع بضوئه المنقذ في هاتيك المجتمعات التي أضناها الإرهاق الديني، ولم ير الإسلام بأسًا من أن يستقبل النصراري واليهود إلى جانب المسلمين في مجتمع واحد ، يسوي فيه بينهم في جميع الحقوق والواجبات، ولم ير بأسًا من أن تقوم الكنائس والبيع إلى جانب المساجد، ألم يكن ذلك أبداع وأروع ما في سياسة الفتح الإسلامي؟ لقد كانت حرية الضمائر والعقائد والفكر، وما زالت منذ أقدم العصور، أثنى ما تحرص عليه الشعوب الكريمة وتذود عنه .

فإذا ذكرنا أن هذا التسامح الذي أبداه الإسلام نحو الأمم المغلوبة، وهذا الاحترام لضمائر الناس وعقائدهم ، وهذه الحرية التي تركها لهم في إقامة شعائرهم، إنما جاءت بعد عصور طويلة من الاضطهاد الديني، اتخذت فيها مطاردة الضمائر والعقائد أشنع

الأساليب والصور، استطعنا أن نقدر ما كان لذلك الانقلاب من أثر عميق في نفسية الشعوب المغلوبة وعواطفها، وما كانت تحبو به حكم الإسلام من التأييد والرضى .

ويبدى كثير من العلماء الإسبان أنفسهم مثل هذا التقدير، والإشادة باعتدال السياسة الإسلامية وآثار مسلكها المستنير. ذلك أن العرب تركوا الشعب المغلوب دون مضايقة، يحى حياته الخاصة في نظمه وتقاليده . وهذا ما يسلم به المستشرق سيمونيت، بالرغم من كونه من أشد العلماء الإسبان تحاملا، فهو يقول لنا « إنه فيما يتعلق بالقوانين المدنية والسياسية ، فإن النصارى الإسبان احتفظوا في ظل الحكم الإسلامي بنوع من الحكومة الخاصة، واحتفظ الناس بأحوالهم القديمة دون تغيير كبير، وفيما يتعلق بالتشريع، فإنهم قد احتفظوا في باب النظم الكهنوتية بقوانين الكنيسة الإسبانية القديمة، واحتفظوا في الناحية المدنية بالقوانين القوطية أو قانون التقاضي Fuero Juzgo، يخضعون لها في كل ما له علاقة بحكومتهم. وهي حكومة بلدية محلية، وما لم يكن يتعارض مع القوانين والسياسة الإسلامية»^(١).

(١) دولة الإسلام في الأندلس / لمحمد عبد الله عنان / ص ٦٣ - ٦٦ .

من هذه الكتابات وأمثالها يتبين لنا الأثر العظيم الذي تركه المسلمون في سنوات معدودات من الحضارة الإنسانية العالية في الأندلس ، وتظهر لنا الخسارة الفادحة التي مُنيت بها أمم أوروبا على إثر انهزام المسلمين في معركة «بلاط الشهداء» وتوقف المسلمين عن مواصلة الجهاد والفتوح الإسلامية في بلاد أوروبا .

جهاد الدولة الأموية الأندلسية

من مواقف عبد الرحمن الداخل

بعد أن تم القضاء على الدولة الأموية في العالم الإسلامي وخلفتها الدولة العباسية استطاع أحد شباب بني أمية أن يفرّ من قبضة العباسيين وأن يُكوّن له دولة في الأندلس لا تخضع لدولة العباسيين ، وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، وقد دخل الأندلس في سنة ثمان وثلاثين ومائة فأقام فيها دولة لبني أمية بعد حروب بينه وبين معارضيه ويعرف بعبد الرحمن الداخل لدخوله الأندلس^(١).

ولقد كان عهد عبد الرحمن الداخل عهد حروب داخلية بينه وبين المناوئين له ، وقد تمكن بعد صراع مرير طويل من القضاء عليهم جميعاً، وقد كان يتمتع بالشجاعة والصبر والدهاء، ولقد كان لكفاءته القيادية أثر واضح في نجاحه، ولما كان ليس من منهج هذا الكتاب الخوض في المعارك التي جرت بين المسلمين فإنني لم أتعرض للكتابة عنها .

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٤/ ٣٦٢-٣٦٣ ، البيان المغرب ٢/ ٤٧ .

وقد كان لعبد الرحمن الداخل جهود سياسية وحربية في صدّ ملك الأفرنج شرلمان الذي دخل الأندلس بجيشه بطلب من سليمان ابن يقظان الكلبي أحد مناوئي عبد الرحمن الداخل .

وفي بيان هذه الحرب يقول الدكتور محمد السيد الوكيل :

رأى شرلمان أن الفرصة سانحة لغزو الأندلس ، وكان هذا هو حلمه الذي كان يحلم به وبخاصة وأنه قد أنهى فتوحاته في أوروبا، بإخضاع السكسون ، وليس عليه إلا أن يحقق حلمه، في إقامة إمبراطورية بإخضاع الأندلس.

عبرت جيوش شرلمان جبال البرانس، واستولى على مدينة بمبْلونة، واستمر في زحفه على مدينة سرقسطة ، ولكنه وجدها وقد أغلقت أبوابها في وجهه، حيث أحسّ سكانها بقيادة الحسين بن يحيى، بخيانة سليمان بن يقظان، وأنه يريد أن يسلم المدينة إلى شرلمان ملك الفرنجة .

كان شرلمان يحلم بطرد المسلمين من الأندلس، وكان يمني نفسه بتحقيق هذا الحلم، حتى وافته الفرصة، فخرج في ربيع ١٦٣هـ - ٧٧٨م

وكان يعتقد أن مدينة سرقسطة ستفتح له أبوابها، ولكنه وجدها قد أغلقت أبوابها، وتحصن بها أهلها، إما رغبة من حسين بن يحيى في الانفراد بحكم المدينة أو غضباً منه على سليمان، لأنه خان الأمانة، ولم يرع حق عبد الرحمن الذي ولاه على المدينة.

واضطر شرلمان إلى محاصرة سرقسطة، ولكن الحصار قد طال، حتى يئس شرلمان من فتحها، يضاف إلى ذلك أن أنباء قد وصلت شرلمان، تحمل إليه أنباء اضطراب قد وقع في بلاده مما اضطره إلى رفع الحصار عن سرقسطة، وعاد إلى بلده وهو يحمل معه سليمان بن يقظان، لأنه أخل بوعدده، ولم يسلمه المدينة كما وعده.

انسحب شرلمان عائداً بخيبة الرجاء، ولما وصل مدينة بمبلونة سحب منها حاميتها التي كان قد تركها فيها بعد الفتح، وهدم أسوارها، وكان الأمير عبد الرحمن الداخل قد استعد للانتقام من شرلمان، فحرض عليه قبائل البشكنس، وتعاونت هذه القبائل مع المسلمين، وأبناء سليمان الذين كانوا يحاولون إنقاذ أبيهم.

وكانت المفاجأة المفزعة لجيش شرلمان في ممرات جبال البرانس

الضيقة، حيث انقضت عليه الجيوش بالسهام والحجارة، حتى قضوا على مؤخرة هذا الجيش الذي جاء به ليفتح الأندلس قضاء تامًا، وقُتل كثير من قواده العظام ، وقتل كذلك قائده ورفيق حياته (رولان) واشتد حزن شرلمان على هذا القائد ، وكان مقتل هذا القائد موضوعًا لأنشودة من شعر الملاحم الفرنسي ، تعرف بأنشودة رولان .

وفي أثناء المعركة تمكن ولدا سليمان بن يقظان من إنقاذه وتخليصه من يد الملك شرلمان، ورجعا به إلى سرقسطة .

وكانت هزيمة شرلمان هذه درسًا قاسيًا، وتجربة جانبها الصواب، حيث حاول تجربة حظه في فتح بلاد إسلامية ، فباء بالفشل، ورجع بخيبة الأمل^(١) .

وهكذا استعمل عبد الرحمن الداخل دهاءه فسلط القبائل المجاورة لجبال البرانس ونظمهم مع المسلمين ليقوموا بهجوم مباغت لجيش شرلمان من مجاهل تلك الجبال فأبادوا كثيرًا من جيشه، فكانت

(١) الأمويون بين الشرق والغرب ٢/ ١٤٢ عن كتاب تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس

وكتاب الأمويون أمراء الأندلس .

تلك الحرب أنجح من المواجهة ولم تكلف المسلمين خسائر .
وفي هذه المعركة عبرة فيما حصل لسليمان بن يقظان الذي خان
الأمانة وتحالف مع الأعداء فقد فشل في تلك المحاولة وأصبح أسيرًا
لدى من تحالف معه، ثم اضطر ابنه إلى أن ينضم بجيشها لجيش عبد
الرحمن الداخل ليخلصا أباهما من الأسر، وهكذا تمكن عبدالرحمن
من تسليط أعدائه على أعدائه حتى ظفر بعدوه الكبير شلمان .

رأي أبي جعفر المنصور بعبد الرحمن الداخل :

نظرًا لما حققه عبد الرحمن الداخل من إقامة دولة أموية في
الأندلس والقضاء على جميع مناوئيه مع أنه كان طريد العباسيين من
قطر إلى قطر فإنه قد نال إعجاب أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور
وأثنى عليه على الرغم من العداء القائم بين العباسيين والأمويين، فقد
ذكر أبو عبد الله محمد ابن عذارى المراكشي أن أبا جعفر المنصور قال
يوما لبعض جلسائه : أخبروني عن صقر قريش من الملوك ! قالوا :
ذاك أمير المؤمنين الذي راض الملوك وسكن الزلازل وأباد الأعداء
وحسم الأدواء .

قال :ماقلتم شيئا ، قالوا : فمعاوية ؟ قال : لا ، قالوا: فعبد الملك بن مروان ، قال: ماقلتم شيئا، قالوا: ياأمير المؤمنين فمن هو ؟ قال : صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية ، الذي عبر البحار وقطع القفر ، ودخل بلدا أعجميا منفردا بنفسه، فمَصَّرَ الأمصار وجند الأجناد ، ودوَّن الدواوين ، وأقام ملكا عظيما بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة شكيمة .
إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان، وذللَّ له صعبه، وعبد الملك ببيعة أبرم عقدها، وأمير المؤمنين بطلب عثرته واجتماع شيعته، وعبد الرحمن منفرد بنفسه مؤيد برأيه مستصحب لعزمه، وطد الخلافة بالأندلس ، وافتتح الثغور وقتل المارقين وأذل الجبابرة الثائرين .

فقال الجميع : صدقت والله ياأمير المؤمنين ^(١) .

وقد توفي عبد الرحمن الداخل بعد أن أقام دولة قوية في الأندلس سنة اثنتين وسبعين ومائة ، وخلفه ابنه هشام على إمارة الأندلس ^(٢) .

(١) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ٢/ ٥٩ - ٦٠ .

(٢) الكامل في التاريخ ٥/ ٨٣ ، البيان المغرب ٢/ ٤٧ .

مواقف هشام بن عبد الرحمن في الأعمال الجهادية والإصلاحية

مواقفه الجهادية :

من ذلك ما ذكره ابن عذاري من أن أمير الأندلس هشام بن عبد الرحمن جهز جيشا بقيادة أبي عثمان عثمان بن عبيد الله بن عثمان إلى بلاد ألبّة والقلاع ، وأنه لقي بها أعداء الله بجموعهم متوافرين فهزمهم الله على يديه ، وقُتلوا في السهل والوعر وكان عدد قتلى الأعداء أكثر من تسعة آلاف وذلك في عام ستة وسبعين ومئة .

ثم ذكر أنه في هذه السنة جهز جيشا بقيادة يوسف بن بخت إلى جليقية فالتقى بمرمود الكبير قائد الأعداء في تلك الناحية، وأنه جرت بينهم معركة انهزم فيها عدو الله وغنم المسلمون عسكره، وبلغ عدد قتلى الأعداء عشرة آلاف سوى من قتلوا بعد المعركة .

ثم ذكر أنه في سنة سبع وسبعين ومائة بعث جيشا بقيادة عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث وذلك في فصل الصيف إلى أرض الروم التي تقع شمال الأندلس ، وأنه بقي شهورا يقاتل الأعداء

ويجرب الحصون ، ثم أوقع بمدينة أربونة ، وكان فتحها عظيماً مشهوراً ،
بلغ فيه خمس السبي خمسة وأربعين ألفاً من الذهب العين .

ثم ذكر ابن عذارى أنه في سنة تسع وسبعين ومائة أغزى الإمام
هشام بن عبد الرحمن عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث بالصائفة ،
حتى انتهى إلى مدينة أسترقة داخل جليقية . فبلغه أن إذفونش قد
حشد بلاده ، واستمد البشكنش وأهل تلك النواحي التي تليه من
المجوس وغيرهم ، وأنه عسكرهم مابين حيز جليقية والصخرة ، وأنه
أذن لسكان السهل بالتفرق في شواحق جبال السواحل . فقدم
عبدالكريم فرج بن كنانة في أربعة آلاف فارس ، ثم رحل في إثره ،
فألقى أعداء الله ، فواضعهم الحرب حتى هزمهم الله ، فقتل حماهم ،
وأسر جماعة منهم ، ثم أمر بعد انحلال الحرب بقتلهم ، وبث الخيل في
القرى ، فانتسفت جميع ما ألفت من زروعهم ، وخربت مامرت عليه
من عمارتهم . وتقدم بعد ذلك إلى واد يقال له كوثية ، فلقى به عندماره
وهو في ثلاثة آلاف فارس فقاتله حتى انهزم عسكره ، وأخذ عندماره
أسيراً ، وقتل من أصحابه عددٌ كثيرٌ . وأصاب العسكر جميع ما في تلك

الناحية. وتقدم مستنجزًا لإذفونش، فلما بلغه قصده إليه تنحى عن الجبل الذي كان فيه منحازًا عنه إلى حصن له، كان قد بناه وأتقنه على وادي نلون، فتقرب منه عبد الكريم مُتفتيًا لأثره، لا يمر بمنزل فيما بينه وبينه إلا حرَّقه، ولا بهال إلا أصابه، حتى أطل على الحصن فانتقل منه إلى حصن مُلكه. واحتل عبد الكريم بالحصن الذي انتقل منه، فألقى فيه الأطعمة وضروب الذُّخر، وبعث في اليوم الثاني من حلوله به فرج بن كنانة، في عشرة آلاف فارس، يقفوا أثره، فلما قرب منه، انهزم عنه وأسلم جميع عُدَّته وذخره، فغنم المسلمون جميع ذلك^(١).

وهذا الاهتمام الجيد من الأمير هشام بن عبد الرحمن يدل على عنايته بحماية الدولة الإسلامية وسعيه في إقرار الأمن للمسلمين، فإن الاستسلام لحياة الركود وتعطيل الجهاد يجعل الأعداء يطمعون في الإغارة على بلاد المسلمين ويأخذونهم على حين غفلة منهم، أما إذا كانت ذكريات جهاد المسلمين ماثلة في أذهانهم فإنهم يرغبون في السلامة ولا يفكرون في غزو بلاد المسلمين.

(١) البيان المغرب ٢/٦٣ - ٦٥.

مواقفه الإصلاحية :

من أمثلة عدله ورغبته في الإصلاح ما ذكره ابن عذاري في ترجمته قال: وكان هشام يبعث إلى الكُور قوماً عدولاً يسألون الناس عن سير العمال، ثم ينصرفون إليه بما عندهم ، فيقع نظره بهدم ماتكشفه المحنة له منهم .واعترض له يوماً متظلمٌ من أحد عماله، فبدر إلى الشاكي من رجال العامل من ترخاه شفقة منه على العامل. فبعث إلى الشاكي وقال له : احلف على كل ما ظلمك فيه، فإن كان ضربك ، فاضربه، أو هتك لك سترًا، فاهتك ستره، أو أخذ لك مالاً، فخذ من ماله مثله، إلا أن يكون أصاب منك حدًّا من حدود الله ! فجعل الرجل لا يحلف على شيء إلا أُقيد منه . فكان زجره هكذا لعماله أبلغ فيهم من النكال والأدب. وكان كريماً عادلاً فاضلاً متواضعاً عاقلاً ، لم تُعرف منه هفوةٌ في حديثه ، ولا زلةٌ في أيام صباه .ومن كرمه أنه كان يُصِرُّ أموالاً في صُرر ، ويخرج بها بين المغرب والعشاء يتفقد المسجد ، فإذا وجد واحداً يصلي في مسجد أو لا يصلي وضع بين يديه صرةً ، حتى كثرت عمارة المساجد .

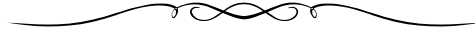
وكان -رحمه الله ! - قد نظر في بنيان قنطرة قُرْطُبة، وأنفق في إصلاحها أموالاً عظيمة . وتولى بناءها بنفسه، وتعطى الأجرة بين يديه . قال ابن وضاح : لما بنى هشام القنطرة ، تكلم بعض الناس فيه، وقالوا : إنما بناها لتصيُّده ونُزهته! فحلف حين بلغه ذلك ألا يجوز عليها إلا لغزو أو مصلحة .

قال القاضي أبو معاوية : أدركتُ صدرًا من الناس يحكون أن أيام هشام هذا كانت من الدَّعة والعافية والهدوء بحيث لم يُعلم لها مثلٌ . وكان يحضر الجنائز ، ويزاحم فيها، كأنه أحد من الناس، تواضعًا .

وكان لبعض رجال هشام خصومةٌ في دار عند القاضي مُصعب ابن عمران، ، فسجّل عليه القاضي فيها وأخرجه منها، فنهض الرجل إلى هشام ، وقال له : إن القاضي سجّل عليّ في داري التي كنت أسكنها، وأخرجني عنها ! فقال له هشام : وماذا تُريد مني ؟ والله لو سجّل عليّ القاضي في مقعدي هذا ، لخرجت عنه ! انقيادًا منه للحق،

رحمة الله عليه !^(١) .

فهذه أمثلة من اهتمام الأمير هشام بن عبد الرحمن بالدعوة والإصلاح والعدل ، وإذا قرنت هذه الاهتمامات مع الاهتمام بالجهاد كان في ذلك ضمان لقوة الدولة الإسلامية وبقائها .



(١) البيان المغرب ٦٦/٢ .

مواقف الحكم بن هشام الجهادية والإصلاحية

مواقفه الجهادية :

تولى الإمرة بعد أبيه هشام الذي توفي في عام ثمانين ومائة، وقد كانت له مواقف جهادية ، فمن ذلك ما ذكره المؤرخ ابن عذاري قال: وفي سنة ثلاث وتسعين ومائة خرج رذريق صاحب إفرنجة إلى جهة طرطوشة فأغزى الحكم ابنه عبد الرحمن في جيش كثيف، وكتب إلى عمروس وعبدون عاملي الثغر بالغزو معه بجميع أهل الثغر ، فتقدم عبد الرحمن بالجنود وتوافت عليه الحشود وحفّت به المطوعة ، فألفوا الطاغية خارجا إلى بلاد المسلمين، ودارت بينهم حروب شديدة ثبّت الله فيها أقدام المسلمين فانهمز المشركون ، وكانت فيهم مقتلة عظيمة، ففني أكثرهم .

وقال أيضا : وفي سنة أربع وتسعين ومائة غزا الحكم إلى أرض الشرك . وكان السبب في هذه الغزاة أن عباس بن ناصح الشاعر كان بمدينة الفرج (وهي وادي الحجارة) . وكان العدو بسبب اشتغال الحكم بهاردة وتوجيه الصوائف إليها مدة من سبعة أعوام قد عظمت

شوكته ، وقوى أمره . فشنَّ الغارات في أطراف الثغور، يسبي ويقتل .
وسمع عباس بن ناصح امرأة في ناحية وادي الحجارة ، وهي تقول :
واغوثة يا حَكَم ! قد ضيعتنا وأسلمتنا واشتغلت عنا ، حتى استأسد
العدوُّ علينا ! فلما وفد عباس على الحكم ، رفع إليه شعراً يستصرخه
فيه، ويذكر قول المرأة واستصرخها به، وأنهى إليه عباس ما هو عليه
الثغر من الوهن والتِّيَاث الحال . فرثى الحكم للمسلمين، وحمي لنصر
الدين، وأمر بالاستعداد للجهاد، وخرج غازيا إلى أرض الشرك ،
فأوغل في بلادهم ، وافتتح الحصون ، وهدم المنازل، وقتل كثيراً ،
وأسر كذلك ، وقفل على الناحية التي كانت فيها المرأة، وأمر لأهل
تلك الناحية بمال من الغنائم، يصلحون به أحوالهم ويفدون سباياهم،
وخصَّ المرأة وآثرها ، وأعطاهم عدداً من الأسرى عوناً . وأمر
بضرب رقاب باقيهم ، وقال لأهل تلك الناحية وللمرأة: هل أغاثكم
الحَكَم ؟ قالوا : شفا والله الصُّدُورَ ، ونكى في العدوِّ، وماغفل عنا إذ
بلغه أمرنا ! فأغاثه الله وأعزَّ نصره !

ثم ذكر في حوادث سنة تسع وتسعين ومائة أن الحكم أغزى

عمّه عبد الله البلنسيّ الغزوة المشهورة، وكانت برشلونة: ألقى
المشركين قد حلّوا بها يوم احتلاله، وكان يوم الخميس ، فأراد من معه
مناشبة الحرب، وتشوفوا للقتال ، فمنعهم حتى إذا كان في اليوم الثاني
، وهو يوم الجمعة وقت الزوال ، أمر بتعبئة الكتائب، ونَصَبَ الرُّدود،
وقام فصلى ركعتين، ثم نادى في الناس، وركب هو ومن معه،
وناهض أهل الشرك، وما أحسبه فعل ذلك إلا فقهاً وعلماً وتأسياً
بحديث النبي ﷺ حيث أمر بالقتال في تلك الساعة، فإنَّ فيها تهبُّ
الأرواح ، وتفتح أبواب الجنة، وتستجاب الدعوات . فمنحهم الله
أكتاف المشركين ، وانهزموا . وقتل عامتهم ، وفرَّق جمعهم . فلما أقلع
عن القتال وإنجلت الحرب، نصب قناةً طويلةً ، فاثبتت في الأرض ،
وأمر بالرُّؤوس ، فجُمعت وطُرحت حَوَالِيهَا حتى غابت القناةُ فيها
ولم تظهر .

ثم ذكر في حوادث سنة مائتين أن الحكم أغزى وزيره عبد
الكريم بن مغيث إلى بلاد المشركين، فدخلها وتوسطها، وأهلك

معائشها ومرافقها، وحطم زروعها، وهدم منازلها وحصونها، حتى استوفى جميع قرى وادي أرون. فحشدت إليه [الملوك] الطاغية - دمرها الله- وإنجلبت النصرانية من كل مكان ، وأقبلت الجموع ، ونزلت بعدوة نهر أرون، وصار النهر حاجزاً بينهم وبين المسلمين. فلما أصبح نهض عبد الكريم بمن معه إلى مخاض الوادي ، ونهض أعداء الله إليهم، فقاتلوهم على كل مخاضة منها ، فجالدهم المسلمون عليها مجالدة الصابرين المحتسبين،واقترح أعداء الله النهر إليهم ، فاقتتلوا على مخاضته،ثم حمل المسلمون عليهم حملة صادقة، فأضغطوهم في المضائق،وأدخلوهم على غير طريق،فأخذتهم السيوف والطحن بالرماح والغرق في المياه،فقتل من المشركين عددٌ عظيمٌ لا يُحصى كثرةً، ومات أكثرهم بالتردي ودرس بعضهم بعضا، وصاروا بعد المطاعنة والمجالدة بالرماح والسيوف إلى القذف بالحجارة ، وأكثروا الحراس بالمخاض ، ووعروها بالخشب، وحفروا الحفائر ، وخذقوا الخنادق . ونزلت الأمطار،وكان قد فرغ ماكان لأعداء الله من المرافق، وضافت

الحال أيضا بالمسلمين ، فقفل عبد الكريم ظافراً لسبع خلون من ذي القعدة^(١) .

في هذه الأخبار مثل من اهتمام أمير الأندلس الحكم بن هشام بأمر الجهاد وحماية دار الإسلام .

وفي خبر المرأة التي استغاثت بالحكم مثل من الغرب يشبه ماجرى في الشرق من تلك المرأة التي استغاثت بأمر المؤمنين المعتصم بالله العباسي ، ولقد اشتهر خبر المعتصم ولم يشتهر خبر الحكم بسهولة تداول تاريخ المشرق ، ولقد قام كل واحد من الأميرين بالجهاد وإغاثة المرأة التي استغاثت به .

وهكذا يتحفنا تاريخ قادة المسلمين بالروائع الجهادية في المشرق والمغرب، حيث يرى أولئك القادة أن سعادتهم الروحية ليست في التقلب في نعيم الدنيا ، وإنما هي في إغاثة الملهوفين وإنقاذ المكروبين وإعزاز الإسلام والمسلمين وإذلال الكفر والكافرين .

(١) البيان المغرب ٢/٧٢-٧٥ .

من مواقف الإصلاحية :

من أخبار اهتمامه بالعدل ما ذكره ابن عذاري في ترجمته قال: كان الحكم - رحمه الله - شديد الحزم، ماضي العزم، ذا صولة تُتَّقَى. وكان حسن التدبير في سلطانه، وتولية أهل الفضل والعدل في رعيته، وكان مبسوط اليد، وكان له قاض كفاه بورعه وعلمه وزهده، فمرض مرضا شديداً، فاغتم الحكم لمرضه ، فذكر بعض خاصته أنه أرق ليلةً أرقاً شديداً ، وجعل يتململ على فراشه، ف قيل له : أصلح الله الأمير ! ما الذي عرض ؟ فقال : ويحكم ! إني سمعت في هذه الليلة نادبةً ، وقاضينا مريضٌ ، وما أراه إلا وقد قضى نحبه . فأين لي بمثله ، ومن يقوم بالرعية مقامه ؟ فمات القاضي في تلك الليلة وهو المصعب بن عمران قاضي أبيه . فولى بعده محمد بن بشير .

فكان أقصد الناس إلى حق، وأبعدهم من جور، وأنفذهم بحكم. ورفع إليه رجل من أهل كورة جيان أن عاملاً للحكم اغتصبه جاريةً ، وصيرها إلى الحكم ، فوقع من قلب الحكم كل موقع، فأثبت الرجل أمره عند القاضي ، وأتاه بينه تشهد على معرفة ما تظلم

منه وبملكه للجارية وبمعرفتهم بها، فأوجبت السُّنَّةُ أن تحضر الجارية، فاستأذن القاضي على الحكم ، فأذن له ، فلما دخل عليه ، قال له: أيها الأمير ! إنه لا يتم عدلٌ في العامة دون إقامته في الخاصة ! وحكى له أمر الجارية ، وخيره بين إبرازها للبينة ليشهد على عينها أو عزله، فقال له الحكم : أولاً أدعوك إلى خير من ذلك ! تبتاع الجارية من صاحبها بأبلغ ما يطلب فيها . فقال القاضي : إنَّ الشهود قد شهدوا من كورة جيان ، وأتى الرجل يطلب الحق في مظانه ، فلما صار ببابك ، تصرفه دون إنفاذ الحق له، ولعل قائلاً يقول : باع مالا يملك بيع مقهور ، فلما رأى عزمه على ذلك ، أمر بإخراج الجارية من قصره، فشهد الشهودُ عنده على عينها، وقضى بها لصاحبها.

قال : وكان هذا القاضي محمد بن بشير ، إذا خرج للمسجد، وجلس للأحكام، جلس في رداءٍ معصُفَرٍ ، وشعر مفرَّق، فإذا طُلب ما عنده وُجد أفضل الناس وأورعهم .

وكان الحكم يقول : ماتحلى الخلفاءُ بمثل العدل !^(١) .

(١) البيان المغرب ٢/٧٨-٧٩ .

وهكذا يضرب الحكم مثالا من أروع الأمثلة على الاهتمام بتعيين
القضاة الأكفاء ويخضع لتطبيق الحق حينما يتوجه عليه، ويشيد
بالخلفاء الذين يتحلون بالعدل، وهذه أفعال وأقوال حميدة، وخاصة
حينما تصدر ممن هم في أعلى قمة من المسؤولية في بلادهم، وهي إلى
جانب كونها من المثل العالية التي تربى عليها هؤلاء الأمراء في ظل
تطبيق الإسلام فإنها من التجارب السياسية التي توارثها الساسة
وعرفوا أن بها صلاح الدول والشعوب .

وفي هذا الخبر موقف جليل للقاضي محمد بن بشير حيث أصر
على الحكم بالعدل وإنفاذ الحق حتى على الحاكم ، وهو موقف يضاف
إلى مواقف القضاة العالية التي أقرروا فيها العدالة وحفظوا للأمة
الإسلامية أمنها وقوتها .

مواقف عبد الرحمن الناصر الجهادية

هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم . تولى إمرة الأندلس بعد موت جده عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم وذلك في عام ثلاثمائة^(١) .

كان له غزوات كثيرة ضد النصارى، قاد بعضها بنفسه وأسند قيادة بعضها لقادته ، وسأعرض نماذج من أبرز الغزوات التي تمت في عهده باختصار ، فمن ذلك :

غزوة مطونية :

وكانت في العام السادس والثلاثمائة حيث جهز أمير المؤمنين عبدالرحمن الناصر حملة بقيادة حاجبه بدر بن أحمد إلى دار الحرب، وكان سبب ذلك أن النصارى تناولوا على من بجوارهم من أهل الثغور من المسلمين لما انقطعت الغزوات الصيفية لبلادهم ، فخرج إليهم الجيش الإسلامي بعدما تجمعت أمداده من أنحاء البلاد في يوم الثلاثاء لخمس بقين من شهر محرم ، وقد تجمع الأعداء وحشدوا

(١) الكامل في التاريخ ٦/١٤٣ .

قواتهم، فجرت بينهم وبين المسلمين معركة حامية انتصر فيها المسلمون وشفى الله صدورهم من أعدائهم ، وقتل من الأعداء عدد كبير وأسر منهم كذلك ، وكان الفتح يوم الخميس لثلاث خلون من ربيع الأول ويوم السبت لخمس خلون من ربيع الأول^(١) .

غزوة بلدة :

وفي شهر ذي الحجة من عام ستة وثلاثمائة غزا الناصر لدين الله بنفسه مدينة بلدة ، وقد مر في طريقه بحصن دوش أمانتش فنازله وحاربه حتى افتتحه ، ثم نهض إلى مدينة بلدة فحاصرها يوم الثلاثاء لليلة بقيت من ذي الحجة ، فنزل من كان بها من المسلمين وذكروا أنهم كانوا مغلوبين على أمرهم فأمنهم الناصر وقاتل الكفار في المدينة حتى أظفره الله بهم فقتلوا عن آخرهم وملك المسلمون المدينة، واستولوا على بعض الحصون المجاورة^(٢) .

(١) البيان المغرب ١٧٢/٢ بتصرف .

(٢) البيان المغرب ١٧٣/٢ بتصرف .

غزوة مؤيش :

وفي سنة ثمان وثلاثمائة غزا أمير المؤمنين الناصر دار الحرب، حيث خرج من قرطبة يوم السبت لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر المحرم، وبعد أربعة أيام ورد عليه كتاب فتح من عامله على مدينة الفرج يذكر فيه أن المشركين من أهل جليقية أتوهم في جمع كثير وأن الله تعالى منحهم أكتاف الكفرة فقتلوا وأسروا كثيرا منهم فاستبشر الناصر وتفاءل باسم المحلة التي كان فيها يوم أن ورد عليه كتاب النصر وهي مخاضة الفتح .

وقد استمر الناصر في مسيره نحو بلاد العدو وأظهر التوجه إلى الثغر الأقصى ثم عرج بالجيش إلى طريق آلبة والقلاع ، ثم بعث سعيد ابن المنذر الوزير في سرية إلى حصن وُخْشمة فأغذَّ السير حتى قرب من الحصن ، وسرَّح الخيل يمنا ويسرة ، والمشركون في سكون وغفلة، إذ كان أميرهم قد كاتب أمير المؤمنين مكايذا له بمحاولة إبعاده عن بلاده بمواعيد وعدها من نفسه فأظهر أمير المؤمنين الناصر قبول ذلك منهم وأضمر الكيد بهم فغشيتهم الخيل المغيرة على حين غفلة فأصابوا

مواشيهم ودوابهم فغنموها ورجعوا إلى العسكر سالمين، ثم كان هجوم الجيش على ذلك الحصن ففرَّ منه الكفار وأخلوه وذلك في صباح الجمعة لاثنتي عشرة ليلة بقيت من صفر .

ثم رحل أمير المؤمنين الناصر إلى حصن قاشترمورش وهو قاعدة الكفار هناك والموضع الذي كانوا يغيرون منه على المسلمين، فلما رأهم أعداء الله أخلوا الحصن وخرجوا هاربين، فدخله المسلمون وغنموا جميع ما فيه ، وخرّبوا حصن القُبلة المجاور له .

ثم ارتحل الناصر بالمسلمين إلى مدينة قُلُونِيَّة وكانت من أمهات مدنها فاستولوا على ما حولها ثم وجدوها خالية قد شرد عنها أهلها إلى الجبال المجاورة لهم ، فغنم المسلمون جميع ما أصابوا فيها .

ثم ارتحل الناصر لخمس بقين من صفر إلى ثغر تطيلة لنجدة المسلمين بها حيث كان زعيم النصارى « شانجه » قد ضايقهم وأخافهم، فسار بالمسلمين برفق لئلا يشق عليهم لاتصال سفرهم حتى وصل إلى تطيلة ، ثم قدّم الخيل مع محمد بن لُبّ عاملها إلى حصن قلهرّة الذي اتخذ شانجه للإغارة على أهل تطيلة ، فلما قصده

الخيال أخلاه من كان فيه واستولى عليه المسلمون ، وبقي الناصر يومين حتى خربه وغنم ما فيه واستولى على ماحوله .

ثم رحل بالجيوش يوم الأحد لأربع خلون من ربيع الأول قاصداً زعيم النصارى « شانجه » ، فخرج شانجه من حصن أرنيط بجيشه وتعرض لمقدمة جيش المسلمين فتبادر إليه الشجعان فانهزم الكفار وركبتهم الخيل ، فقتل من الكفار من قتل وفر بقيتهم إلى الجبال ، وحاز المسلمون كثيراً من رؤوس قتلى المشركين وتلقوا بها أمير المؤمنين الناصر ولم يكن له علم بالمعركة .

وورد الخبر على الناصر باجتماع أردزون وشانجه واستمداد بعضها ببعض طامعين في اعتراض مقدمة جيش المسلمين أو قطع ساقتهم ، فأمر الناصر بتعبئة العساكر وضبط أطرافها ، ثم نهض بهم موغلا في بلاد الأعداء ، فأشرفوا من الصخور والجبال المنيعة وتعرضوا لأطراف جيش المسلمين ، وجعلوا يتصايحون ويولولون ليضعفوا من قلوب المسلمين ، فأمر الناصر بالنزول وإقامة الأبنية ، فلما نزل الأعداء من الجبال قاتلهم المسلمون فهزموهم وساروا

خلفهم يقتلون من أدركوا منهم حتى حجز الظلام بينهم ، ولجأ عند الهزيمة أكثر من ألف من الأعداء إلى حصن مويش فأحاط به المسلمون من جميع جهاته وحاربوا من لجأ إليه حتى فتحوه واخرجوا جميع من فيه وقتلوههم، واستولوا على ما فيه وما حوله^(١) .

غزوة طُرش :

وفي يوم السبت الثامن من محرم سنة تسع وثلاثمائة خرج أمير المؤمنين الناصر إلى « كورة رية » حتى نزل على حصن « طرش » وكان النصارى قد اجتمعوا فيه وتحصنوا به فحاصرهم المسلمون من جميع الجهات ونصبوا المنجنيقات على المرتفعات القريبة منه، وكان الأعداء يبرزون في أول الأمر للقتال حتى مزقتهم الحرب وقل عددهم فأغلقوا الحصن على أنفسهم ، فاستمر المسلمون في حصارهم حتى أخذهم الجهد وأشفقوا من الهلاك فخاطبوا أمير المؤمنين ضارعين إليه في تأمينهم على أن يسلموا الحصن ويخرجوا عنه، فأجابهم إلى ذلك، فدخله المسلمون وخرج منه النصارى ، ثم هُدم وأُلقيت

(١) البيان المغرب ١٧٥/٢ بتصرف .

أحجاره في النهر، وبُني في موضع الكنيسة مسجد جامع^(١).

غزوة مُنت رُوبي :

وفي يوم السبت لعشر خلون من المحرم عام عشرة وثلاثمائة خرج أمير المؤمنين الناصر لغزو كورة ألبيرة ، وسار حتى نزل على حصن منت روبي ، وكان جبلا منيعا بعيد المرام، وكان العجم قد لاذوا به، وهو متوسط بين كورة ألبيرة وكورة جيان وعلى طريق بجانة، فكان من سلك تلك السبيل من وارد أو صادر لا يسلم من عادية أهل ذلك الحصن، وكانوا يسفكون الدماء ويسلبون الأموال، فأقام عليهم الأمير الناصر خمسة وثلاثين يوما محاصرا حتى أباد كثيرا منهم، ثم أبقى على الحصن من جنوده من استمر على محاصرتهم، وتقدم إلى حصون قريبة في ألبيرة ورية فحارب أهلها وأبقى من قاداته من يحاصرونها ، حتى ضعف الأعداء ولم يبق لهم وجود يضر بالمسلمين^(٢).

(١) البيان المغرب ٢/ ١٨٠ بتصرف .

(٢) المرجع السابق ٢/ ١٨٢ بتصرف .

غزوة بَنبَلونة :

وفي يوم السبت لأربع عشرة ليلة بقيت من المحرم سنة اثنتي عشرة وثلاثمائة خرج أمير المؤمنين الناصر لدين الله لغزو بنبلونه ، وقد سار في عسكر كبير حتى دخل ثغر تطيلة فانضم إليه جنود من أهل ذلك الثغر ، ثم دخل بلاد المشركين يوم السبت لأربع خلون من ربيع الآخر فنزل من أول بلادهم على حصن قلّهَرَه ، وكان زعيم النصارى «شانجه» قد أخلاه ، فأمر الناصر بهدمه، ثم انتقل إلى بيطرة آتته ، وكانت هناك حصون مانعة فأخلاها الأعداء ، ولجأ بعضهم إلى غيرانٍ في شفير جرف على النهر، فلم يزل المسلمون يتعلقون إليهم فيها ويتسورون عليهم من أعاليها حتى فتح الله عليهم فقتلوا الرجال وسبوا الذراري وغنموا الأمتعة .

ثم انتقل الناصر بعد ذلك إلى عدد من حصون الأعداء فاستولى عليها، وعزم على الدخول إليهم في عقر دارهم فدخل في مواضع لم يدخلها المسلمون قبل ذلك حتى نزل بقرية بشكُونشة التي ينسب إليها «شانجه» ، فجمع هذا القائد جنوده واستمد بالنصارى من كل

مكان، فأمر الناصر بالتعبئة والاستعداد للحرب واثقا بالله - عز وجل - ومتوكلا عليه ، فسلك بجيشه بين جبال شامخة ، ورجا أعداء الله اقتطاع بعض جيش المسلمين وهبطوا من الجبال فدارت بينهم وبين المسلمين مناوشة يسيرة، ثم نهض المسلمون إلى أعدائهم نهوض الأسود فعبروا النهر إليهم وصمموا بالحملة عليهم حتى اقتلعوهم عن موضعهم وهزموهم حتى اضطروهم إلى مرتقى وعرفاقتحم المسلمون عليهم وسهل الله لهم وعره فقتلوا جملة منهم وغنموا كثيرا من أموالهم ، وانصرفوا سالمين لم يصب منهم غير عدد قليل فازوا بالشهادة^(١).

وبعد فهذه أمثلة من الغزوات التي قام بها أمير المؤمنين عبدالرحمن الناصر لدين الله، وهذه الأمثلة تبين لنا الجهود الكبيرة التي بذلها حكام الأندلس وقادتهم وجنودهم في سبيل الدفاع عن الإسلام والمسلمين وتثبيت الدولة الإسلامية ، ومن هذه الأمثلة وغيرها ندرك أن ما اشتهر عن حكام الأندلس من أنهم كانوا يتقبلون

(١) البيان المغرب ٢/ ١٨٥ بتصرف .

في أنواع من النعيم ليس على إطلاقه، بل إن ذلك الرخاء والنعيم لم يتوافر لهم إلا في ظل رايات الجهاد الخفاقة التي اندحر بها الأعداء واستسلموا لقوة المسلمين .



مواقف المنصور محمد بن أبي عامر الجهادية والإصلاحية

مواقفه الجهادية :

بعد أن توفي الحكم بن عبد الرحمن في عام ستة وستين وثلاثمائة تولى بعده ابنه هشام وكان ابن اثنتي عشرة سنة وكان أمر دولته لوزير أبيه جعفر بن عثمان المصحفي ، وكان لابن أبي عامر دور قوي في السياسة في عهد الحكم بن عبد الرحمن فرقاه هشام إلى رتبة الوزارة، ثم استأثر ابن أبي عامر بالحكم وتخلص من جعفر بن أبي عثمان، ومن بعض القادة الذين ينافسونه في الحكم حتى انفرد أخيراً بشؤون الحكم، وكان يحكم باسم الأمير هشام^(١) ، ومع ما وقع فيه من تدبير المؤامرات وقتل المنافسين فإن له مواقف جهادية كثيرة .

ومن أبرز غزواته غزوة « شنت ياقوب » وقد ذكر المؤرخ ابن

عذاري هذه الغزوة بقوله :

وعند تناهي المنصور ابن أبي عامر في هذا الوقت على الاقتدار،

والنصر على الملوك الطاغية (دمرها الله) ، سما إلى مدينة شنت ياقوب

(١) انظر الأمويون بين الشرق والغرب / ٣٨٠-٣٨٨ .

وما بها من الأرض الكبيرة . وكانت كنيسةهم بمنزلة الكعبة عندنا، فيها يخلفون وإليها يحجون من أقصى بلاد رومة وماوراءها، ويزعمون أن القبر المزور فيها قبر ياقوب الخواري أحد الإثني عشر رحمهم الله ، وكان أخصهم بعيسى عليه السلام، وهم يسمونه أخاه للزومه إياه . وقد زعم جماعة منهم أنه ابن يوسف النجار . وشتت ياقوب هي مدفن ياقوب، فهم يسمونه أخا الرب (تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا) وياقوب بلسانهم يعقوب، وكان أسقفًا بيت المقدس، فجعل يستقري الأَرْضين داعيًا لمن فيها، فجاز إلى الأندلس حتى انتهى إلى هذه القاصية، ثم عاد إلى أرض الشام، فقتل بها، وله مائة وعشرون سنة شمسية . فاحتمل أصحابه رتمه، فدفنوها بهذه الكنيسة التي كانت أقصى أثره . ولم يطمع أحدٌ من ملوك الإسلام في قصدها، ولا الوصول إليها ، لصعوبة مدخلها وخشونة مكانها، وبعُد سُقَّتْهَا .

فخرج المنصور إليها من قرطبة غازيًا بالصائفة يوم السبت لست بقين من جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وثلاثمائة ، وهي غزوته الثامنة والأربعون .

ثم ذكر خطوات مسيره إلى أن قال : ثم نهض يريد شنت
ياقوب، فقطع أرضين متباعدة الأقطار، وقطع بالعبور عدة أنهار كبار
وخلجان يمدّها البحر الأخضر . ثم أفضى العسكر بعد ذلك إلى
بسائط جليلة من بلاد فلطارش ومباسيطة والدير ومايتصل بها، ثم
أفضى إلى جبل شامخ شديد الوعر، لامسلك فيه ولا طريق ، لم تهتد
الأدلاء إلى سواه• فقدّم المنصور الفعلة بالحديد لتوسعة شعابه وتسهيل
مسالكه، فقطعه العسكر وعبروا بعده وادي منيه، وانبسط المسلمون
بعد ذلك في بسائط عريضة وأرضين أريضة، وانتهت مغيرتهم إلى دير
قسطان وبسيط بلبنوط على البحر المحيط ، وفتحوا حصن شنت
بلايه، وغنموه، وعبروا سبأخه إلى جزيرة من البحر المحيط لجأ إليها
خلق عظيم من أهل تلك النواحي، فسبوا من فيها ممن لجأ إليها .
وانتهى العسكر إلى جبل مراسية المتصل من أكثر جهاته بالبحر
المحيط، فتخللوا أقطاره ، واستخرجوا من كان فيه، وحازوا غنائمه .
ثم أجاز المسلمون بعد هذا خليج لورقي في معبرين أرشد
الأدلاء إليهما، ثم نهر إيله، ثم أفضوا إلى بسائط واسعة العمارة ، كثيرة

الفائدة ، منها بسيط أونبة وقرجيطة ودير شنت برية . ثم انتهوا إلى خليج إيلياء ، وهو من مشاهد ياقوب أيضا صاحب القبر ، تلو مشهد قبره عند النصرى في الفضل ، يقصد نساكهم له من أقاصي بلادهم ومن بلاد القبط والنوبة وغيرها . فغادره المسلمون فارغاً .

وكان النزول بعده على مدينة شنت ياقوب البائسة، وذلك يوم الأربعاء لليلتين خلتا من شعبان ، فوجدها المسلمون خالية من أهلها، فحاز المسلمون غنائمها، وهدموا مصانعها وأسوارها وكنيستها، وعفوا آثارها . ووكل المنصور بقبر ياقوب من يحفظه ويدفع الأذى عنه .

إلى أن قال : وإنكفاً المنصور عن باب شنت ياقوب ، وقد بلغ غاية لم يبلغها مسلم قبله .

قال : ولم يجد المنصور بشنت ياقوب إلا شيخا من الرهبان جالسا على القبر ، فسأله عن مقامه، فقال: أوانس يعقوب . فأمر المنصور بالكف عنه^(١) .

(١) البيان المغرب ٢/ ٢٩٤ - ٢٩٧ باختصار .

فهذه غزوة من غزوات المنصور ابن أبي عامر الكثيرة، وقد خصصتها بالذكر لما فيها من المغامرات التي لم يسبق إليها في تلك البلاد، ولعل الذي دفعه إلى هذه المغامرات وتدمير ما وصل إليه من عامر تلك البلاد الجبلية هو كون تلك المناطق الوعرة ملاذًا للمخربين من النصارى الذين يقومون بالهجوم على بلاد المسلمين ثم يلجؤون إلى تلك البلاد التي لم يكونوا يتوقعون أن أحدًا من الغزاة سيصل إليها.

قال ابن عذاري : وفي سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة توفي المنصور ابن أبي عامر رحمه الله تعالى ، قال: وكانت عدة غزواته سبعا وخمسين غزوة باشرها كلها بنفسه ، وهو في أكثرها يشكو علة النقرس ، عفا الله تعالى عنا وعنه ^(١) .

من مواقفه الإصلاحية :

وقد ذكر المؤرخ ابن عذاري نبذة من إصلاحات ابن أبي عامر ومن ذلك : بنيان قنطرة على نهر قرطبة الأعظم . ابتداء المنصور بنيانها سنة سبع وثمانين وثلاثمائة ، وفرغ منها في النصف من سنة تسع

(١) البيان المغرب ٢/ ٣٠١ .

وثمانين وثلاثمائة ، وانتهت النفقة عليها إلى مائة ألف دينار وأربعين ألف دينار، فعظمت بها المنفعة ، وصارت صدرًا في مناقبه الجليلة. وكانت قطعة أرض لشيخ من العامة ، ولم يكن للقنطرة عُدُولٌ عنها، فأمر المنصور أمناه بإرضائه فيها ، فحضر الشيخ عندهم، وأخذ حذره منهم، فساوموه بالقطعة وعرفوه وجه الحاجة إليها ، وأن المنصور لا يريد إلا إنصافه فيها . فرماهم الشيخ بالعرض الأقصى عنده فيما ظنه : أن لا تخرج عنه بأقل من عشرة دنانير ذهبًا ، كانت عنده أقصى الأمانة، وشرطها صحاحًا . فاغتنم الأمناء غفلته ، ونقدوه الثمن، وأشهدوا عليه ، ثم أخبروا المنصور بخبره ، فضحك من جهالته، وأنف في غبنه ، وأمر أن يعطى عشرة أمثال ما سأل ، وتدفع له صحاحًا كما قال . فقبض الشيخ مائة دينار ذهبًا ، فكاد أن يخرج عن عقله وأن يجنَّ عند قبضها من الفرح، وجاء محتفلاً في شكر المنصور. وصارت قصته خبرًا سائرًا .

ومن ذلك أيضا : بنان قنطرة على نهر إستجة ، وهو نهر شنيل،

فتجشم لها أعظم مؤنة. وسهّل الطُّرق الوعرة والشعاب الصعبة^(١) .
فهذان مثالان من الإصلاحات العامة التي قام بها، ومما يلفت
النظر في الخبر الأول رحمته بذلك الشيخ وتورعه عن غبنه، فهو لم
يغتتم فرصة جهله بالأسعار كما فعل أصحابه، بل أعطاه حقه وزيادة
على ذلك ، فهذا يدل على تنزهه من الظلم وإن كان ذلك غير معلوم
لمن سيقع عليه .

قال : ومن ذلك أنه خط بيده مصحفاً كان يحمله معه في أسفاره،
يدرس فيه ويتبرك به .

ومن قوة رجائه أنه اعتنى بجمع ماعلق بوجهه من الغبار في
غزواته ومواطن جهاده ، فكان الخدم يأخذونه عنه بالمناديل في كل
منزل من منازلهم ، حتى اجتمع له منه صُرَّةٌ ضخمة عهد بتصويره في
حنوطه عند موته ، وكان يحمله حيث ماسار مع أكفانه ، توقعاً لحلول
منيته ، وقد كان اتخذ الأكفان من أطيب مكسبه من الضيعة الموروثة
عن أبيه وغزل بناته . وكان يسأل الله تعالى أن يتوفاه في طريق الجهاد ،

(١) البيان المغرب ٢/ ٢٨٨ .

فكان كذلك^(١) .

وهذان الخبران يدلان على قوة دينه وعمق استحضاره للحياة الآخرة وتعظيمه لكتاب الله تعالى والجهاد في سبيله.

قال : وكان عدل المنصور في الخاصة والعامة . واطّراحه المهاودة، وبسطه الحق على الأقرب فالأقرب من خاصته وحاشيته أمراً مضروباً به المثل .

ومن عدله أنه وقف عليه رجلٌ من العامة يوماً بمجلسه فناده: ياناصر الحق إن لي مظلمة عند ذلك الوصيف الذي على رأسك! وأشار إلى الفتى صاحب الدرقة . وكان له فضلٌ محل عند ابن أبي عامر ، ثم قال : وقد دعوته إلى الحاكم ، فلم يأت ! فقال المنصور: أوعبد الرحمن بن فطيس بهذه المنزلة من العجز والمهانة وكنا نظنه أمضى من ذلك ؟ اذكر مظلمتك يا هذا ! فذكر الرجل معاملةً كانت جارية بينهما قطعها من غير نصف، فقال المنصور : ما أعظم بليتنا بهذه الحاشية ! ثم نظر إلى الصَّقَلَبِيِّ ، وهو قد ذهل عقله، فقال: ادفع الدرقة

(١) المرجع السابق ٢/ ٢٨٨ .

إلى فلان ، وانزل صاغراً ، وساو خصمك في مقامه حتى يرفعك الحُقُّ
أو يضعك ! ففعل ، ومثُل بين يديه ، ثم قال لصاحب شرطته الخاص
به : خذ بيد هذا الظالم الفاسق ، وقدمه مع خصمه إلى صاحب المظالم
لينفذ عليه حكمه بأغلظ ما يوجب الحق من سجن أو غيره ! ففعل
ذلك ، وعاد الرجل إليه شاكرًا ، فقال له المنصور: قد انتصفت أنت
فاذهب لسبيك ، وبقي انتصافي أنا ممن تهاون بمنزلتي . فتناول
الصقليّ بأنواع من المذلة ، وأبعده عن الخدمة .

ومن ذلك ، قصة فتاه الكبير المعروف بالميورقي مع التاجر
المغربي، فإنهما تنازعا في خصومة توجهت فيها اليمين على الفتى
المذكور ، وهو يومئذ أكبر خدم المنصور، وإليه أمر داره وحرمه،
فدافع الحاكم ، وظن أن جاهه يمنع من إحلافه ، فصرخ التاجر
بالمنصور في طريقه إلى الجامع متظلمًا من الفتى ، فوكل به في الوقت
من حمله إلى الحاكم ، فأنصفه منه ، وسخط عليه المنصور، وقبض
نعمته منه ونفاه .

ومن ذلك ، قصة محمد ، فصّاد المنصور وخادمه وأمينه على

نفسه، فإن المنصور احتاجه يوماً إلى الفصد، وكان كثير التعهد له، فأنفذ رسوله إلى محمد، فألفاه الرسول محبوساً في سجن القاضي محمد بن زرب، لحَيْف ظهر منه على امرأته. قدر أن سييله من الخدمة يحميه من العقوبة. فلما عاد الرسول إلى المنصور بقصته أمر بإخراجه من السجن مع رقيب من رُقباء السجن، يلزمه إلى أن يفرغ عن عمله، ثم يعيده إلى محبسه. ففعل ذلك على مارسمه، وذهب الفاصد إلى شكوى ماناله، فقطع عليه المنصور، وقال له: يا محمد، إنه القاضي وهو في عدله، ولو أخذني الحقُّ ماأطقتُ الامتناع منه! عُدْ إلى محبسك أو اعترف بالحق فهو الذي يطلقك. فانكسر الحاجم، وزال عنه ريحُ العناية. وبلغت قصته للقاضي، فصالحه مع زوجته، وزاد القاضي شدةً في أحكامه^(١).

فهذه الأخبار الثلاثة تدل على عدله وإنصافه أهل الحق من ظالمهم وإن كانوا من المقربين إليه، وفي الخبر الأول نراه يُنجي باللائمة على ذلك القاضي الذي عجز عن استقدام المدعى عليه لكونه

(١) البيان المغرب ٢/٢٨٩ - ٢٩٠.

من المقربين للمنصور ، فهو يرى بذلك أن القاضي يجب عليه أن يكون قويا وأن لا تأخذه في الحق لومة لائم وأن لا يفرق في الخصومة بين كبير أو صغير، ثم إنه بعد أن أخذ المظلوم حقه نراه يعاقب ذلك الفتى الظالم عقوبة خاصة لكونه استغل قربه منه فامتنع من الحضور إلى مجلس القضاء .

قال : ومن ذلك قصة الجوهري التاجر ، وذلك أن رجلا جوهرياً من تجار المشرق قصد المنصور من مدينة عدن بجوهر كثير، وأحجار نفيسة ، فأخذ المنصور من ذلك ما استحسنته ، ودفعت إلى الجوهري التاجر صرته ، وكانت قطعة يمانية . فأخذ التاجر في انصرافه طريق الرملة على شط النهر ، فلما توسطها واليوم قائظ وعرقه مُنصبٌ دعت نفسه إلى التبرد في النهر ، فوضع ثيابه وتلك الصرة على الشط ، فمرت حداً ، فاختطف الصرة ، تحسبها لحماً، وصاعدت في الأفق بها ذاهبة ، فقطعت الأفق الذي تنظر إليه عين التاجر ، فقامت قيامته وعلم أنه لا يقدر أن يستدفع ذلك بعدوى ولا بحيلة ، فأسّر الحزن في نفسه، ولحقته لأجل ذلك علةٌ اضطرب فيها . وحضر الدفع إلى

التجار ، فحضر الرجل لذلك بنفسه، فاستبان له مابه من المهانة والكآبة ، وفقد ماكان عنده من النشاط وشدة العارضة . فسأله المنصور عن شأنه ، فأعلمه بقصته ، فقال له: هلا أتيت إلينا بحدثان وقوع الأمر ؟ فكنا نستظهر على الحيلة، فهل هَدَيْت إلى الناحية التي أخذ الطائر إليها ؟ قال: مرَّ مُشْرِقًا على سَمْت هذه الجنان الذي يلي قصرِك ! يعني الرملة ، فدعا المنصور شرطيه الخاص به فقال له : جئني بمشيخة أهل الرملة الساعة ، فمضى ، وجاء بهم سريعًا ، فأمرهم بالبحث عمّن غيرَ حال الإقلال منهم سريعًا ، وانتقل عن الإضاعة دون تدرّيج ، فتناظروا في ذلك، ثم قالوا: يامولانا ! مانعلم إلا رجلاً من ضعفائنا كان يعمل هو وأولاده بأيديهم ، ويتناولون السَّقِي بأقدامهم عجزًا عن شراء دابة، فابتاع اليوم دابة واكتسى هو وولده كسوة متوسطة . فأمر بإحضاره من الغد، وأمر التاجر بالغدو إلى الباب ، فحضر الرجل بعينه بين يدي المنصور، فاستدناه والتاجر حاضرٌ ، وقال له : سبِّ ضاع منا وسقط إليك ما فعلت به ؟ فقال: هو ذا يامولاي ؟ وضرب بيده إلى حجة سراويله، فأخرج الصرة

بعينها ، فصاح التاجر طرباً وكاد يطير فرحاً، فقال له المنصور : صف لي حديثها . قال : نعم ! بينا أنا أعمل في جناني تحت نخلة ، إذ سقطت أمامي ، فأخذتها، وراقني منظرها، فقلت إن الطائر اختلسها من قصرك لقرب الجوار ، فاحترزت بها، ودعنتني فاقتني إلى أخذ عشرة مثاقيل عُيوناً كانت معها مصرورة ، وقلت: أقلُّ ما يكون في كرم مولاي أن يسمح لي بها . فأعجب المنصور ما كان منه ، وقال للتاجر : خُذ صرّتك ، وانظرها ، واصدقني عن عددها . ففعل وقال : وحق رأسك ، يامولاي ، ماضاع منها شيء سوى الدنانير التي ذكرها ، وقد وهبتها له . فقال له المنصور : نحن أولى بذلك منك ، ولاننقص عليك فرحتك . ولولا جمعه بين الإقرار والإنكار لكان ثوابه موفوراً عليه . ثم أمر للتاجر بعشرة دنانير عوضاً من دنانيره وللجنان بعشرة دنانير ثواباً لتأنيه عن إفساد ما وقع بيده، وقال : لو بدأنا بالاعتراف قبل البحث ، لأوسعناه جزاءً ! قال : فأخذ التاجر في الشناء على المنصور ، وقد عاوده نشاطه، وقال: والله لأبشّن في الأقطار عظيم ملكك، ولأبينن أنك تملك طير عملك كما تملك إنسها ، فلا تعتصم

منك ولا تؤذي جارك! فضحك المنصور ، وقال: اقصد في قولك
يغفر الله لك ! فعجب الناس من تल्प المنصور في أمره ، وحيلته في
تفريج كربته ^(١) .

فهذا مثال على دهاء المنصور ابن أبي عامر ودقة ملاحظته، وهذا
التفوق في النظر في القضايا والبحث الدقيق في خفاياها وملايساتها
إنما هو بالدرجة الأولى توفيق من الله تعالى لمن حملوا في أفكارهم هموم
الأمّة وأصبح إحقاق الحق وإبطال الباطل مطلبهم الكبير، فالذهن في
هذه الحال يتفتق عن أنواع من مجالات الحلول التي يصل بها صاحبها
إلى حل القضايا المشكّلة ومعرفة الأمور المغيبة .



(١) البيان المغرب ٢/ ٢٨٨ - ٢٩٢ .

جهاد المرابطين في الأندلس

قبل أن أتحدث عن دور المرابطين في الجهاد في الأندلس أحب أن أعطي نبذة موجزة عن دولة المرابطين .

وأصل نشوء هذه الدولة التي حكمت بلاد المغرب والأندلس يعود إلى يحيى بن إبراهيم الجدالي الصنهاجي ، أمير قبيلة جدالة ، فإنه قد شعر بما كان عليه قومه من الجهل بالدين وعدم وجود علماء يعلمونهم ويذكرونهم ، فلما رجع من الحج عام أربعين وأربعمائة مرَّ على القيروان واتصل هو وجماعته بالعالم المربي أبي عمران بن موسى ابن عيسى الفاسي فطلبوا منه أن يرسل معهم عالماً يفقههم في أمور دينهم، فأحالهم إلى تلميذه العابد المربي وجاج بن زللو اللمطي ، الذي بني له - بعد تخرجه من شيخه - رباطاً في الصحراء الكبرى في «نفيس» واجتمع حوله فيه تلامذته ، وكتب الشيخ إلى تلميذه هذا مع يحيى بن إبراهيم « ابعث إلى بلده من تثق بدينه وورعه وكثرة علمه وسياسته ليعلمهم القرآن وشرائع الإسلام ويفقههم في الدين، ولك وله في ذلك الثواب والأجر العظيم . والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً » .

وقد وقع اختيار الشيخ « وجاج اللمطي » على تلميذه « عبد الله بن ياسين الجزولي » وكان اختيارًا موفقًا كما تبين فيما بعد، حيث كان عبد الله هذا هو منشيء دعوة المرابطين وأستاذ زعمائهم، وسار عبد الله بن ياسين نحو ديار الملثمين من جدالة وملتونة مع يحيى بن إبراهيم، وكان يحيى يقدمه لكل قبيلة يتوجه لدعوتها بقوله « هذا عبد الله بن ياسين محيي السنة » وقد أثار إعجاب قبائل البربر بعلمه وأخلاقه حتى قال أحد شيوخهم: رأيتم هذا الجمل! لا بد أن يكون له في هذه الصحراء شأن عظيم.

وبدأ ابن ياسين دعوته بالوعظ والتعليم فأحبه الناس وأقبلوا عليه، ثم بدأ بإصلاح المجتمع وإنكار المنكرات وتطبيق أحكام الإسلام على العامة والكبراء، فقاومه بعض الأكابر الذين يرفضون من الإسلام ماخالف أهواءهم فهدموا داره ونهبوا ما فيها.

عند ذلك فكّر هو وصاحبه يحيى بن إبراهيم في إنشاء رباط في جزيرة منعزلة عند مصب نهر السنغال في المحيط الأطلسي، وتوافد التلاميذ على ذلك الرباط يتعلمون العلم الديني ويتلقون التربية

الأخلاقية والجهادية ، وقد توسع ذلك الرباط حتى بلغ عدد جماعته أكثر من ثلاثة آلاف^(١) ومن هؤلاء التلاميذ تكونت فرق المجاهدين التي أنشأت دولة المرابطين بعد جهاد طويل قاده منشئ هذه الدعوة عبد الله بن ياسين، بمؤازرة صاحبه يحيى بن إبراهيم الجدالي، ثم بقيادة يحيى بن عمر اللمتوني، ثم أخيه أبي بكر بن عمر، إلى أن آل الأمر إلى يوسف بن تاشفين الذي وسع الجهاد وأقام دولة المرابطين الواسعة .

سبب جهاد المرابطين في الأندلس :

بعد أن سقطت إمارة طليطلة وأصبحت كل إمارات الأندلس مهددة بالسقوط في أيدي النصارى اهتم علماء الأندلس ووجهائها بسبيل إنقاذ وضعهم المتدهور ، فاتَّجَهَتْ أنظارهم إلى طلب النجدة من أمير المرابطين في المغرب ، ووافقهم بعض حكامهم على ذلك، وعلى رأسهم المعتمد بن عباد ، فأرسلوا رسلهم إلى الأمير يوسف بن تاشفين ليسرع إلى نجاتهم^(٢) .

(١) البيان المغرب لابن عذاري ٤/ - ٢٤ ، أمير المسلمين ابن تاشفين لإبراهيم الجمل / ٣٧

- ٤٩ ، التاريخ الأندلسي / ٤١٩-٤٢٠ .

(٢) نفح الطيب ٦/ ٨٧ .

معركة الزلاقة عام ٤٧٩هـ :

وبعد أن وصلت رسل الأندلس إلى ابن تاشفين يطلبون نجدهته سارع إلى ذلك بعد استشارة أهل الرأي ، وقد عبرت الجيوش المرابطية إلى الأندلس على دفعات حتى تكاملت ، وكان عدد فرسان المرابطين سبعة آلاف ومعهم عدد كثير من الرِّجَالَة ، وذلك في شهر ربيع الأول من عام تسعة وسبعين وأربعمائة .

ويُذكر أنه في حال عبور الأمير يوسف بن تاشفين البحر هبت ريح عاصف أثارت أمواجًا عالية ، فرجع الأمير يوسف يديه إلى السماء يدعو الله عز وجل : اللهم إن كنت تعلم أن في جَوَازِنَا هذا خَيْرَةً للمسلمين فسَهِّل علينا جواز هذا البحر، وإن كان غير ذلك فصعِّبه حتى لا أجوزه، فاستجاب الله دعاءه فسَهِّل له عبور ذلك البحر^(١) .

وصل ابن تاشفين إلى الأندلس بجيشه ، وسارع أمراء الطوائف إلى الاشتراك بقواتهم ، وفرح أهل الأندلس بقدوم الأمير ابن تاشفين فرحًا عظيمًا ، وسار المرابطون إلى إمارة بطليوس وعسكروا في سهل

(١) التاريخ الأندلسي / ٤٠٣ عن دول الطوائف ٣١٩، ٤٤٧ .

«الزّلاقة» ، وتوافدت عليهم جيوش الأندلس .

وكان أمير النصارى « الفونسو أذفنوش » يحاصر سَرَقَسْطَة في طريقه إلى الاستيلاء على بقية الأندلس ، فلما علم بقدوم جيش المرابطين فكَّ الحصار وبدأ يستعد وكاتب أمراء النصارى فأجابه عدد منهم واجتمعت عنده جيوش كثيرة ، فسار بجيشه مزهواً بتفوقه في العَدَد والعُدَد ، ونظر إلى جيشه فقال : بهؤلاء أقاتل الجن والإنس وملائكة السماء .

وبعد أن اجتمع أمراء الطوائف ضموا جيوشهم وأسندوا قيادة جيشهم إلى المعتمد بن عباد ، وصاروا في مقدمة الجيش ومن خلفهم جيش المرابطين .

وقبل المعركة جرت مراسلات بين الطرفين ، فقد أرسل ابن تاشفين - عملاً بالسنة - إلى الفونسو يعرض عليه الدخول في الإسلام أو الجزية أو الحرب ، ومما جاء في هذه الرسالة « وبلغنا ياأذفنوش أنك دعوت إلى الاجتماع بك، وتمنيت أن تكون لك فُلُكٌ تعبر البحر عليها إلينا ، فقد جزناه إليك ، وجمع الله تعالى في هذه

العرصة بيننا وبينك ، وسترى عاقبة دعائك: ﴿ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ [الرعد: ١٤] . فغضب الفونسو لهذه الرسالة وردّ بكتاب عنيف مملوء بالوعيد ، وقد اكتفى ابن تاشفين في الرد عليه بأن كتب على ظهر الرسالة « الذي يكون ستراه » .

وقد نظم أمير المسلمين يوسف بن تاشفين جيشه فجعل القوات الأندلسية تحت قيادة المعتمد بن عباد وجعلهم في المقدمة ، وجعل منهم في الميمنة قوة بقيادة ابن الأفطس ، وجعل في الميسرة أهل شرقي الأندلس ، وجعل قوات المرابطين في الخلف ، وأفرد منهم قوتين من الفرسان جعلهما جيش احتياط إحداهما بقيادة داود بن عائشة والأخرى بقيادة أبي بكر سير بن أبي بكر وهما من قادته الكبار .

ولما تقابل الجيشان كتب قائد العدو إلى المسلمين يوم الخميس الحادي عشر من شهر رجب يخبرهم أن المعركة ستكون يوم الإثنين ، وكان ذلك منه خداعا ليباغتهم يوم الجمعة .

وقد أدرك المسلمون تلك الخديعة ، وأكد ذلك ماظهر في جيش العدو من الاستعداد للقتال ، فأخذ المسلمون حذرهم ، وزاد الأمر

تأكيدًا أن أحد العلماء الصالحين وهو أبو العباس أحمد بن زُمَيْلَةَ
القرطبي أخبر برؤيا صالحة ، وهي أنه رأى النبي ﷺ ليلة الجمعة
فبشره بالفتح والشهادة له في صبيحة الغد ، فانتبه مسرورًا وتأهب
ودعا ودهن رأسه وتطيب ، وكان في جيش ابن عباد ، فوصله خبر
الرؤيا فبعث إلى ابن تاشفين وأخبره ، فكان ذلك تحقيقًا لخديعة
الفونسو المذكورة .

فلما كان صباح الجمعة الثاني عشر من شهر رجب من عام تسعة
وسبعين وأربعمائة زحف الفونسو بجيشه على المسلمين . وقد وجه
بقواته إلى مقدمة جيش المسلمين ، وماكاد الأعداء يوجهون ضرباتهم
إلى جيش الأندلس حتى ظهر الفشل والخلل فيهم فانهمز كثير منهم
وثبت قائدهم ابن عباد في قلة معه .

وكان قائد المسلمين يوسف بن تاشفين يلاحظ مايجري بدقة
فوجه الفرقة الاحتياطية التي كانت بقيادة ابن عائشة لنجدة المعتمد
ابن عباد، ثم لما احتدمت المعركة وكثف الأعداء من هجومهم وجه
ابن تاشفين الفرقة الاحتياطية الأخرى بقيادة البطل المشهور سير بن

أبي بكر ، وقد استطاع ابن أبي بكر أن يوقف قوات القشتاليين التي يقودها هانيس ، ودارت بين القوتين معركة عنيفة انضم إليها قائد النصارى الفونسو .

وترجع جيش الأندلسيين فاشتغل النصارى بقتالهم ومطاردتهم، وكانت الفرصة الذهبية التي خطط لها ابن تاشفين حيث كان يلتمس نقاط الضعف في العدو لينزل إلى الميدان بهجوم صاعق، فاغتنم فرصة انشغال الأعداء بمطاردة الجيش الأندلسي وبعدهم عن معسكرهم فداهمهم من الخلف وأباد الحامية التي حول معسكرهم وأضرم فيه النيران ، ثم نزل إلى الميدان وهجم بجيشه على مؤخرة الأعداء وصار المسلمون يحصدونهم بسيوفهم . ولما علم قائد العدو «الفونسو» بما حل بمعسكره رجع بقواته فاصطدم بالمرابطين ودارت بينهم معركة حامية انهزم فيها النصارى .

ثم أراد ابن تاشفين أن يقضي على بقية النصارى فجمع جيشه في صفوف متراصة وهجم بهم على العدو ، واستطاع أحد جنود الفرقة السودانية أن يصل إلى الفونسو وأن يقتل فرسه وطعنه في فخذه إلا أنه

نجا من تلك الطعنة واستمر القتال إلى غروب الشمس، وفرّ بقية جيش النصارى، وتسلسل الفونسو في الظلام مع خمسمائة فارس مات منهم أربعمائة في الطريق ووصل الفونسو إلى طليطلة ومعه مائة فارس^(١).

وهكذا كانت معركة الزلاقة معركة حاسمة ارتفع بعدها شأن المسلمين وثبت وجودهم في الأندلس وانخفض شأن النصارى وانحازوا إلى معاقلهم.

لقد كان الفونسو عازما على إنهاء وجود المسلمين في الأندلس، وساعده على ذلك تحالف أمراء النصارى في أوروبا معه وتفرق المسلمين إلى دويلات صغيرة يعيش أمراؤها في تناحر وعداء مستمر، وكانوا من ذلتهم يدفعون الجزية للنصارى، وبلغت الخيانة ببعضهم إلى أن طلبوا المساعدة من أمير قشتاله الفونسو على قتال إخوانهم من

(١) نفع الطيب ٨٦/٦ - ١٠٣، الكامل في التاريخ ١٤١/٨، أمير المسلمين يُوسف بن تاشفين لإبراهيم الجمل/١١٦-١٣٤، التاريخ الأندلسي للدكتور عبد الرحمن الحججي ٤٠٣/ - ٤٠٩.

أمرء المسلمين ، فاغتنم هذا الأمير الفرصة وبدأ يستولي على بلاد الأندلس إلى أن قيَّض الله له الأمير البطل القائد المحنَّك يوسف بن تاشفين ففضى على جيشه وحطم آماله .

ولقد كان عجبياً أن يخوض ابن تاشفين هذه المعركة الهائلة وهو في الثمانين من عمره، ومع هذا العمر الكبير فإنه قاد جيشه وشارك في القتال وهو على ظهر فرسه، وهذا من الدلائل على صلاحه وعلو همته.

لقد كان من نتائج هذه المعركة الفاصلة أن الإسلام بقي في الأندلس مئات السنين بعد أن اتفق الأعداء من النصارى على القضاء على وجود المسلمين هناك .

عاد الأمير يوسف بن تاشفين إلى المغرب في شهر شعبان من عام تسعة وسبعين وأربعمائة، وترك جزءاً من جيشه في الأندلس بقيادة سير ابن أبي بكر ليجاهد النصارى، وقد شارك معه في الجهاد أمير بطليوس، أما بقية أمرء الأندلس فإنهم قد تركوا جهاد النصارى ورجعوا إلى مُنازعاتهم، ولم يستفيدوا من الدروس الأليمة التي مروا بها يوم أن كانوا قاب قوسين أو أدنى من أن يتحولوا إلى عبيد للنصارى.

حصار حصن لبيط :

اشتد ضغط النصارى على المسلمين في الأندلس وتكررت هجماتهم خاصة على الجهة الشرقية التي كان المعتمد بن عباد يسيطر عليها، وكانوا يخرجون إلى المسلمين من حصن « لبيط » المنيع وكان النصارى قد أحكموا بناءه ووضعوا فيه آلافًا من المقاتلين ، ولما أيس ابن عباد من الانتصار عليهم وخشي من وقوع بلاده تحت أيديهم سار إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وشرح له الضرر الواقع على المسلمين من حصن لبيط وطلب منه نجاتهم ، فوعده ابن تاشفين بالقدوم إلى الأندلس بجيشه .

وبعد أن أكمل الأمير يوسف بن تاشفين استعداداته سار وعبر مضيق جبل طارق فتلقاه المعتمد في الجزيرة الخضراء بالمؤن، وكتب ابن تاشفين إلى ملوك الطوائف يستنفرهم إلى الجهاد وحدد مكان اللقاء حصن لبيط ، وقد حاصره المسلمون حصارًا شديدًا إلى أن وافق أمير قشتالة الفونسو على إخلائه فأخلاه ثم هدمه ، وتخلص المسلمون بذلك من بلاء كبير ، وعاد ابن تاشفين إلى المغرب ، ولكن الأندلس

عادت إلى أسوأ من حالها الأولى^(١).

عودة المرابطين إلى الجهاد :

هذا وقد ساءت أحوال ملوك الطوائف في الأندلس، وجدد بعضهم تحالفه مع النصارى ضد إخوانه المسلمين، فكثرت مناشدة المسلمين للأمير يوسف بن تاشفين بتخليص الأندلس من هؤلاء الملوك، وأفتاه العلماء كأبي حامد الغزالي وأبي بكر الطرطوشي بضرورة توحيد الأندلس تحت قيادته ليتمكن من إجلاء الصليبيين منها، وقد استجاب لتلك النداءات وعمل بفتوى العلماء فجهز جيشاً وعبر إلى الأندلس في أوائل سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة وقام ببعض الأعمال الجهادية، ثم عاد إلى المغرب وترك عدداً من قادته ليكملوا الجهاد في توحيد الأندلس ومقاومة النصارى، وقد جرت معركة كبيرة بين المرابطين بقيادة سير بن أبي بكر والنصارى بقيادة البرهانس كان النصر فيها حليف المسلمين وذلك في عام أربعة وثمانين وأربعمائة. وفي عام واحد وتسعين وأربعمائة التقى المرابطون بقيادة محمد بن

(١) التاريخ الأندلسي / ٤٢١ - ٤٢٢، أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ١٣٥ - ١٤٢.

الحاج بالنصارى القشتاليين بقيادة الفونسو قرب كنشرة من أعمال طليطلة وقد انهزم النصارى وتكبدوا خسائر كبيرة .

واستمر المرابطون في جهادهم إلى أن توفي أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين في أول محرم من عام خمسماية بعد عمر يقارب المائة سنة قضى أكثر من نصفها في الجهاد والإصلاح رحمه الله رحمة واسعة .
وقد خلفه في حكم دولة المرابطين ابنه علي الذي سار على سيرة أبيه في مواصلة الجهاد في سبيل الله تعالى .

معركة أقليش :

جرت هذه المعركة بعدما تولى الأمير علي بن يوسف بن تاشفين الحكم في أوائل عام واحد وخمسماية، وقد كتب الأمير علي إلى أخيه تميم باستئناف الجهاد، فتوجه المرابطون إلى مدينة أقليش الواقعة شرق مدينة طليطلة ففتحوها، وتركها جيش النصارى القشتاليين وتحصنوا بقلعة أقليش المنيعة، وقد أمدَّ أمير قشتالة الفونسو السادس تلك الحامية بعشرة آلاف فارس، بقيادة ولي عهده ابنه الوحيد شأنجه البالغ إحدى عشرة سنة، مع قائده الكبير البرهانس وقادة آخرين، وكان عدد

الجيش القشتالي يفوق كثيرًا عدد الجيش الإسلامي، وقد جرت هذه الواقعة في السادس عشر من شوال عام واحد وخمسمائة، وقد انتصر فيها المسلمون انتصارًا رائعًا أعاد ذكرى معركة الزلاقة، وانهمز القشتاليون هزيمة ساحقة قُتل فيها ابن ملكهم شأنجه المذكور^(١).

معركة إفراغة :

بعد انتصار المرابطين في معركة أقليش جرت لهم أعمال جهادية انتصروا في أكثرها وأصيبوا في بعضها .

ومن أشهر المعارك التي خاضوها معركة إفراغة ، في رمضان سنة ثمان وعشرين وخمسمائة ، وهذه المعركة تعدُّ من المعارك المهمة، وكان الجيش الإسلامي مكوّنًا من المرابطين والأندلسيين بقيادة الأمير أبي زكريا يحيى بن غانية والي بلنسية ومرسية ، ويعدُّ من أعظم قادة المرابطين في ذلك العهد ، وكان جيش المسلمين أقلَّ من جيش النصارى الذي يقوده أدفنوش بن رُدْمير ، وقد انتصر المسلمون في

(١) التاريخ الأندلسي / ٤٢٢ - ٤٢٥ عن البيان المغرب ، وتاريخ الأندلس ، ونظم الجمان

ومصادر أخرى .

هذه المعركة بعد قتال عنيف^(١) .

وهكذا قدم المرابطون للمسلمين صفحات جهادية بيضاء في

المغرب والأندلس .



(١) عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس لمحمد عبد الله عنان / ١٢٠ - ١٢٦ ،

التاريخ الأندلسي / ٤٢٦-٤٣٧ ، عن نظم الجمان ، والروض المعطار ، والبيان المغرب

وغيرها .

المصادر والمراجع

- الأمويون بين الشرق والغرب / لمحمد السيد الوكيل .
- أمير المؤمنين ابن تاشفين / لإبراهيم محمد الجمل .
- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب / لابن عذاري المراكشي .
- تاريخ الأندلس / لابن الكردبوسي .
- التاريخ الأندلسي / للدكتور عبد الرحمن الحججي .
- تاريخ افتتاح الأندلس / لابن القوطية القرطبي .
- تاريخ العرب في الأندلس / الفتح وعصر الولاة / للدكتور خالد الضوني .
- دولة الإسلام في الأندلس / لمحمد عبد الله عنان .
- رياض النفوس / لأبي بكر عبد الله المالكي .
- عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس / لمحمد عبد الله عنان .
- الكامل في التاريخ / لعلي الشيباني (ابن الأثير) .

- معالم الإيمان / لعبد الرحمن بن محمد الأنصاري .
- مع الرعيل الأول / لمحّب الدين الخطيب .
- نظم الجمان / لابن القطان حسن بن علي الكتامي .
- نفتح الطيب / لأحمد بن محمد المقرّي .

فهرس الموضوعات

٥المقدمة
٧ الجهاد والفتوحات في عهد الأمويين
٧ جهاد طريف بن مالك
٨ فتوحات طارق بن زياد
١١ المعركة الفاصلة مع حاكم الأندلس
١٥ فتح عدد من مدن الأندلس
٢٣ فتوحات موسى بن نصير
٢٨ جهاد ولاية الأندلس في أواخر العهد الأموي
٢٨ ولاية عبد العزيز بن موسى بن نصير
٢٩ ولاية السمح بن مالك الخولاني
٣١ ولاية عبد الرحمن الغافقي
٣١ معركة بلاط الشهداء
٤٣ جهاد الدولة الأموية الأندلسي
٤٧ رأي أبي جعفر المنصور بعبد الرحمن الداخل

٤٩ من مواقف هشام بن عبد الرحمن
٤٩ مواقفه الجهادية
٥٢ مواقفه الإصلاحية
٥٥ من مواقف الحكم بن هشام
٥٥ مواقفه الجهادية
٦٠ مواقفه الإصلاحية
٦٣ من مواقف عبد الرحمن الناصر الجهادية
٦٣ غزوة مطونية
٦٤ غزوة بلدة
٦٥ غزوة مويش
٦٨ غزوة طُرُش
٦٩ غزوة مَنَّت رُوبي
٧٠ غزوة بَنبلونه
٧٣ من مواقف المنصور بن أبي عامر
٧٣ من مواقفه الجهادية

٧٧ من مواقفه الإصلاحية
٨٧ جهاد المرابطين في الأندلس
٨٩ سبب جهاد المرابطين في الأندلس
٩٠ معركة الزلاقة
٩٧ حصار حصن لبيط
٩٨ عودة المرابطين إلى الجهاد
٩٩ معركة أقليش
١٠٠ معركة أفراغة
١٠٣ المصادر والمراجع
١٠٥ فهرس الموضوعات